

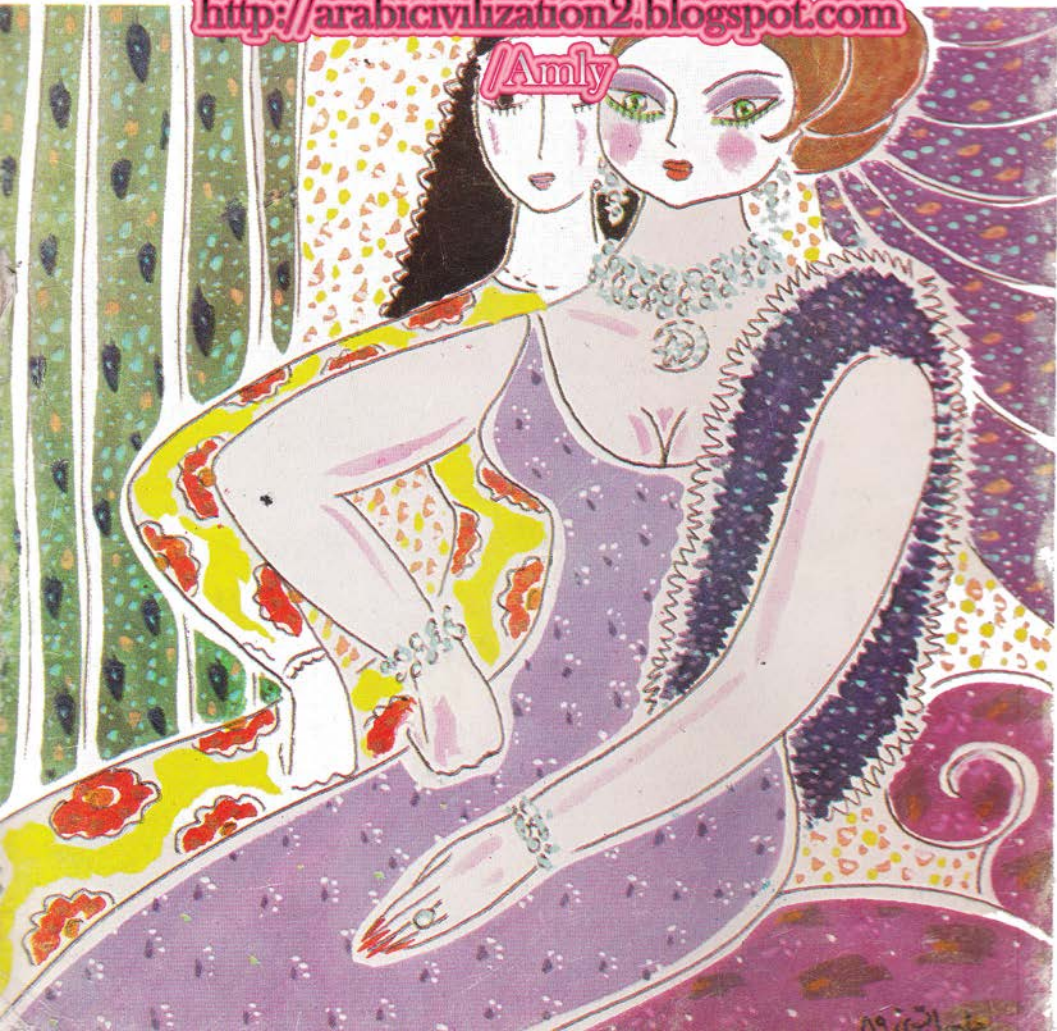
روايات (الهلال

رضوى عاشور

خديجة وسوسن

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

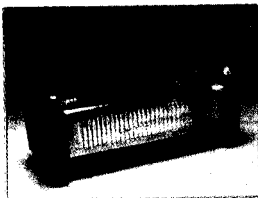
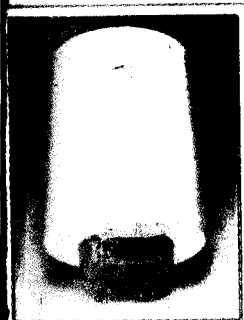
/Amly



عالم الأجهزة الكهربائية تحت اسم واحد... اولمبيك اليكترونيك



OLYMPIC



شركة القاهرة للصناعات الخفيفة - القاهرة - طاش ت : ٣٤١٤٨٢ / ٢١ - الوكالة الوحيدون : شركة المنتجات الهندسية والتكاملات
بع سهل الديل المهران - ميدان رمسيس ت : ٩٠٨١٤٤ - ٩٠٦٧٢ - فاكسيلي : ٩١١٢٩ - توكس : ٩٢٢٥٦ - OLYMPIC من ج.ب. ٢٨١ - القاهرة

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحواله بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال .
وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش :-

لبنان ٧٠٠ ليرة . الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٨٠٠ بييسه ، تونس ١٦٥٠ مليما ، المغرب ٢٠ درهما ، غزة والضفة ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية ٢ دولار ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١,٥٠ جك .

الكويت : السيد عبد العال بسجوني
زغلول الصفاة - ص . ب رقم
13079٢١٨٣٣ - تليفون -
٤٧٤١١٦٤

شَرَك
فِي
رَوَايَات
الهلال

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصاص
العالمى

نصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٤٩٢ ديسمبر ١٩٨٩
جمادى الاولى ١٤١٠ هـ
NO . 492 DE . 1989

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

الغلاف بريشة الفنان :
حلمي التونسي

غُرَيْبَةٌ وَأَسْرَانٌ

بمِثْلَم

رضوی عاشور



دارالہلال

الجزء الأول

خديجة

- ١ -

سأقوم بدور الملك والاغنى العبد !
مررت أن أوقعه في شر أعماله
- أوافق - أنت الملك شرط أن توزع الادوار وتدير اللعبة . كنت
واثقة من فشله ، ولكنه قال :
- اذن أنا الملك ومجدي الوزير وأنت الجارية !
وابتسم وهو ينظر الى بانتصار شرير . قلت :
- لن العبد !
قال مجدي :

- أحمد على حق وأنت التي تفسدين كل شيء !

- حتى أنت يا مجدي !؟

أدرت لهما ظهري وانصرفت الى حجرتي . أخرجت من درج المكتب
كراسة الرسم والأقلام الملونة . أحمد غيبي وبليد ولم يكن ترتيبه الاول
في المدرسة طول حياته فكيف يكون قائدا للعبة ؟ ومجدي مزعج
ويعاندهني بلا داع . والاثنان أصغر مني فلماذا لا ينفذان ما أقوله !؟
جلست الى المكتب وفتحت الكراسة الكبيرة . . ماذا أرسم الآن ؟
تركت النصف الأعلى من الصفحة ورسمت في نصفها الأسفل خطوطا
زرقاء متموجة وأسماكا ، صغيرة وكبيرة ، برتقالية ورمادية ، وسمكة
القرش بأسنانها المخيفة . وفي القاع رسمت نجم البحر والأصداف
والقواقع والمحارة المغلقة على اللؤلؤ الثمينة يجاورها الاخطبوط الشرير
رساميا ومقرفا .

عدت للجزء الابيض المتروك ، رسمت الشمس في الجهة اليمنى :
دائرة تحيط بها خطوط أشعتها ، صفراء وبرتقالية ، وفوق الموج رسمت
القارب : هلال نائم يعلوه شراع مثلث . وفي القارب البننت : وجه
رضفيران وثوب منقوش بالزهور . ثم كتبت اسمي على الشراع
فاكتملت الصورة . حملتها وركضت الى الولدين .

نظر مجدى الى الرسم منبهرا اما احمد فلم يفوت الفرصة :

- تعالى يا خديجة لتلعبى معنا .

لم أنتظر تكرار الدعوة ، أعلنت :

- أنا الملكة ومجدى الوزير و احمد السفير .

تم وأنا أوجه الكلام الى أحمد :

- أرأيت لقد عينتك سفيرا ، فلماذا تتصور اننى ضدك ؟ سوف

تحمل يا سفير أحمد كل الرسائل الهامة الى البلاد الاجنبية .

بدأت اللعبة : وقفت مرفوعة الرأس ومتصلبة كما يليق بملكة

وأعلنت بصوت مجلجل :

- أنا خديجة ملكة مصر قررت بنساء هرم أكبر من اهرام الجيزة

الثلاثة . ياوزير مجدى ابلغ الاهالى بالخبر السعيد وارسل فى طلب

المهندسين والبنائين والنقاشين والفنانين للبدء فى العمل .

- سمعا وطاعة يامولاتى .

- ياسفير أحمد ، اذهب بهذه الرسائل الى كل البلاد الصديقة

وادع ملوكها وملكاتهما ، والامراء والاميرات والنبلاء والفرسان ، والعلماء

المشهورين لحضور الحفل الكبير الذى تقيمه الملكة خديجة بعد شهر

احتفالا بانتهاه البناء .

- سمعا وطاعة يامولاتى .

- خذ هذا الخاتم دليل أنك سفير من عندى .

أخذ منى أحمد الخاتم الوهمى ووضعه فى اصبغه واستدار ليبدأ

مهمته .

- سيدوم احتفالنا اربعين يوما ، افراحا وليالى ملاحا فى القصر وفى

البلاد كلها .

مرت ثوان من الصمت قطعها تصفيق مجدى الذى أعلن :

- انتهى بناء الهرم الاكبر يامولاتى . علقنا الزينات وأقمنا

الاعياد .

بعدها صفق أحمد :

- عدت من رحلتى يامولاتى . دعوت كل الملوك والنبلاء .

قلت وأنا أقفز باتجاه طاولة قديمة وأبدأ فى الدق عليها :

- الآن نفتتح الحفل الكبير ، دقوا الطبول وانفخوا الابواق !

شاركنى مجدى فى الدق على الطاولة فى حين أخذ أحمد يقلد صوت

النفير وهو يتمايل بجسده . عدت الى مكائى لاستقبال المدعويين

ووقفت مرفوعة الرأس أمسك طرف ثوبي بيدي اليسرى : يعلن أحمد
اسم كل وفد فأجيب بإيماء ملكية وأمد يدي للسلام وفجأة قفز الى
جوارى صائحا :

- الآن وقد اكتمل الضيوف ، نرحب بكم جميعا وندعوكم لحمل
الذلة خديجة في موكب كبير الى الهرم .. لندفنها فيه !

يضحك كالمجنون . لم أتصور انه سيخرج عن الدور المرسوم
ويتصرف بهذا الشكل الشرير . انه ينتقم مني لأنى لم أعطه دور الملك .
- أحمد ، يكفي ، هذه سخافة !

- الهرم مكان للدفن ، كلنا نعرف هذا ، أليس كذلك يامجدي ؟
رأيتَه يغمز بعينه لمجدي الذى أجاب :

- أحمد على حق !

- لا تفسدى اللعبة ، لابد أن تدفنى !

- لن أدفن !

في العطلة الصيفية أقضى معظم الوقت مع أخى أحمد ومجدي ابن
الجيران ، نلعب في حديقة البيت في ظل النخلتين العسالتين اللتين
تطرخان بلحا سمانيا أصفر ، نركض حول الاحواض المزروعة بالنعناع
والعتر والريحان ، نلعب « استغماية » ، « وعسكر وحرامية » و « أولى »
والعابا أخرى اخترعها أنا . نظل نلعب حتى يعود أبى من عمله فنصعد
معه ، أنا وأحمد ، لنتناول الغداء أما مجدي فيعود الى بيت جدته .

أبى يعمل صيدليا . فى الصباح يشتغل فى معامل وزارة الصحة ،
وفى المساء يذهب الى الصيدلية التى يمتلكها بالقرب من ميدان الجيزة
وبإمكانى لو سمحوا لى أن أذهب وحدى . أمشى فى خط مستقيم حتى
شارع الروضة ثم أعبر كوبرى عباس فأصل الصيدلية التى تعلوها
لافتة ضخمة تضيئها فى الليل مصابيح النيون ، مكتوب عليها بخط
بارز « صيدلية الشفاء لصاحبها الدكتور محمود عبد الكريم » عندما
تقول أمى أننى مؤدبة يكافئنى أبى باصطحابى معه الى الصيدلية .

أحب أن أرى أبى فى الرداء الأبيض يتحدث مع الزبائن ويقرا
« الروشحات » ويأتى بالدواء المطلوب من الارفف الكثيرة التى تغطى
الجدران وأحب أن أراقبه حين يدخل الى الغرفة الداخلية ليصنع مزيجا .
يمسك بزجاجة بنية ويضع فيها قمعا من البلاستيك الاخضر ثم يصب
فيها محاليل مختلفة من زجاجات كبيرة بيضاء . وحين ينتهى من خلط
المحاليل يرفع القمع ويغلق الزجاجاة بسدادة من الفلين ويكتب على

المصطفى اسم الدواء وعدد مرات تناوله ثم يرج الزجاجة بقوة ويعطيها للزبون .

احب الذهاب الى الصيدلية لان أبى يعطينى أوراقا مصقولة عندها صور ملونة ترسلها اليه شركات الدواء الاجنبية وأيضا لان هنسك محلا كبيرا للعصير ملاصق للصيدلية . آخذ من أبى نقودا وأدخل المحل لاشرى كوبا من عصير المانجو . أعطى البائع ثلاثة قروش فيأتى بزجاجة عصير ويصب منها فى كوب زجاجى كبير . أرى قطع المانجو وهى تنزلق مع العصير فى الكوب وأسمع صوت انزلاقها أيضا فيمتلىء فسى باللعباب . ولكن ماما لا تقول أننى مؤدبة الا نادرا . غالبا ما تقول انتى « معجونة بماء العفاريت ! » .

– خديجة أنت لا تحبين الا نفسك ، أنت أنانية !

– وأنت غبى وحمار وقلب !

تدخل مجدى :

– أحمد على حق . لن نلعب معك أبدا وسنشكيك لأمك .

– أنا أيضا سأقول لها انكما قفزتما أول أمس من فوق السور وذهبتما الى شارع الروضة دون اذنها .

أحمر وجه أحمد من الغيظ ووضع ذراعه على كتف مجدى وأعطاني ظهرهما وسارا بعيدا فتركتهما وذهبت .

فتحت دولا ب ملابس أمى وودستت وجهى داخله أبحث عنها بعينى وأنفى أيضا اذ كانت لها رائحة مميزة . . وجدتها فحملتها بين يدى وجلست على السجادة بين السرير والحائط تحت النافذة العريضة التى تضى الحجرة .

انها حقيبة يد كبيرة نسسيما تذكرنى فى كل مرة بحقيبة الست حنيفة الحكيمة التى تدخن وتتحدث فى السياسة كالرجال . الحقيبتان متشابهتان فى الشكل ، لهما نفس الجلد البنى القديم . ولكن حقيبة الست حنيفة التى تقول ماما أنها ساعدتها فى الولادة تفوح منها رائحة الدواء . عندما كنت صغيرة كنت أفزع من مجرد رؤية هذه الحقيبة لانى أعرف أن بداخلها الابرة الزجاجية والمحقن المعدنى والسن الرفيع الحاد (تخرجهم الست حنيفة من حقيبتها وتضعهم فى أنية نحاسية تملؤها بالماء وتتركه على النار ليغلي بعدها تترك الابرة وتسحب فيها المصل ثم . . .) كنت صغيرة وبلهائ . الآن كبرت وأصبح عندى عشر

سنوات . أراقب أبى وهو يربط ذراع أحد الزبائن بحبل مطاطى
وبرشق سن الابرة الرفيع ، ولا أهتم .

ولكن رائحة هذه الحقيبة تختلف . أفتحها وأقلبها فتنهر
الصور : صور كثيرة مختلفة الحجم واللون ، بعضها بياضه أصفر
وأسوده بنى ، وبعضها الآخر أبيض وأسود ، بعضها ورقه سميك
والآخر لامع ومصقول أحب أن أمر عليه براحة يدي . بطاقات بريدية
ملونة مكتوب على ظهرها بخطوط منمنمة لا أستطيع قراءتها . أفسح
لنفسى مكانا بين الصور ، أنام على بطنى واستند على مرفقى وأبدأ فى
التأمل .

صورة جدى لأبى الذى مات قبل أن أولد . كان مزارعا يملك أرضا
يعمر عليها كل يوم راكبا حصانه يباشر الفلاحين الذين يزرعون ، هذا
ما يقوله أبى . جدى فى الصورة يرتدى جبة وقفطانا وعمامة وله شارب
كث طرفاه مفتولان لأعلى . أضحك وأنا أتأمل أبى وأعمامى . أطفال
يلبسون الطرابيش - أبى أصغرهم وأنحفهم - أعمامى الخمسة كلهم
فى الصورة أما عمى فغائباتان منها « لماذا يا بابا ؟ » « لأن جدك لم
يكن يسمح للبنات بالذهاب الى المصور ولا للمصور بالدخول عليهن فى
البيت » . جدى لأبى لم يكن يسمح ولكن أخاه ، جدى لأمى ، فقد
أرسل بابنته الى المدرسة . وهذه صورة أمى وسط الزهور لها
ضفیرتان وعینان واسعتان وفم كبير مفتوح على آخره ، تضحك رغم
انها الآن لا تفعل ذلك الا نادرا وتعنفنى يوميا وتقول ان الضحك بصوت
عال لا يناسب البنات .

عمى فهيمة فى هذه الصورة التى التقطها لها أبى عندما جاءت
الى القاهرة للعلاج تبدو متجهمة مسكينة ! يكرر أبى كلما رأى الصورة
« لأنها ماتت يا بابا ؟ لأنها ماتت قبل أن تتزوج » كانت عمى جميلة
وطيبة وتحسن الطهو ولكنها مسكينة بلا حظ ماتت قبل أن تتزوج .
عمى فهيمة هى المسكينة أما عمى كريمة فبى المحظوظة لأنها تزوجت ،
وزوجها رجل طويل جدا وعجوز و « مناخيره قد الكرز » . أضحك
لانطباق المثل عليه ، وهو دائما مكفهر الوجه يزرع عمى ويخاق ليا
المشاكل ولا يبتسم الا لو جاءه ضيوف أو نجح أحد أبنائه الثمانية .

« بابا فى المعمل ، لمحت طرفا لصورته المفضلة عندى فسحبتهما من
تحت كومة من الصور . أبى وهو طالب فى كلية الصيدلة بالجامعة

يقف في المعمل بين الأنايب الزجاجية غريبة الشكل ، يضحك وهو يرتدى البالطو الأبيض .
فوجئت بضحكته الليفة تقطع صمت الحجرة ، رفعت عيني فرأيتها، نظرت حولي فوجدت الصور المتناثرة تغطي السجادة . رحت أعيدها بسرعة الى الحقيبة يهون من أسفى عودة أبى من عمله وحلول ساعة الغداء .

– بابا هل يمكن أن آخذ هذه الصورة ؟

رفعت صورته في المعمل ليراها . عندما وافق جمعت الصور المتناثرة وأعدتها الى الحقيبة التي ألقيت بها على عجل فى قاع الدولاب واندفعت راكضة الى غرفتى ولكن أبى نادانى لكى أغلق باب الدولاب الذى تركته مفتوحا على مصراعيه . فعلت ثم ذهبت الى حجرتى وثبتت الصورة فى الإطار الخشبى لمرأة التسريحة .
بابا وسيم فى الصورة وفى الحقيقة ويعرف أشياء كثيرة كلها مدهشة وهو ظريف يعرف كيف يجعلنى أضحك حتى عندما أكون غاضبة أو أبكى .

عندما كنت صغيرة كنت أريد أن أكون مثل أبى فى كل شيء وأن أصبح سيدلية مثله . كنت أجمع العلب الفارغة وصناديق الكرتون الصغيرة وأصفها على المائدة المصنوعة من الخشب تحت تكعيبية العنب وأبيع الدواء لأحمد ومجدى . ثم غيرت رأبى وأعلنت على مائدة الغداء : « عندما أكبر سأصبح بطلة رياضية » أنا أمهر تلميذة فى المدرسة ، أستطيع تنفيذ أى تمرين تطلبه المدرسة وهى تقول لزميلاتى : « أنظرن كيف تؤدى خديجة التمرين » فينظرن . فى مسابقات الركنس أسبق الجميع وعندما أراهن أحمد ومجدى على أى منا يستطيع الوقوف على رأسه مدة أطول أكسب ويخسران . وبمقدورى أن أمشى على يدى أما هما فلا يقدران . كنت أريد أن أصبح بطلة رياضية ، كان ذلك العام الماضى ، الآن لا أريد . سأدرس الجغرافيا وأطوف العالم كسندباد ، هذا هو قرارى الأخير . قلت ذلك لأبى وأمى وأحمد ومجدى وزميلاتى فى المدرسة ولأبلة فاطمة مدرسة الجغرافيا التى قالت : « الخريطة التى رسمتها خديجة هى أفضل خريطة .. صفقن لها » فصفقت لى البنات وأخذت الكراسى فوجدت ١٠/١٠ ونجمة ذهبية جميلة ملصقة بجوار كلمة « ممتاز » .

عندما أكبر سأطوف العالم ، سأرسم خرائط وصورا للمناطق التى أزورها ، وسأكتب عن الأشياء الغريبة التى أراها وأحتفظ بكل

شيء في صندوق خشبي ضخيم تسميه بصندوق عمتي كريمة التي تقول
إنها ورثته عن جدتي . صندوق يشبهه في الشكل والحجم ولكنه أحلى
لأنه مرسوم وملون .

أفكر في صورة أبي المثبتة في إطار المرأة المواجهة لسريري وأغمض
عيني وأحكم الغطاء حول جسمي فأرى نفسي على ظهر سفينة كبيرة بها
بحارة كثيرون وصناديق ضخمة بعضها من الخشب المحفور وبعضها
مطعم بالذهب والفضة وصندوقي المزين بالرسوم الملونة والزخارف
الجميلة . أروح وأغدو ، أتحدث وأضحك ، تشق السفينة البحر
الازرق الواسع ثم فجأة تبرق السماء وترعد وينهمر المطر ويعلو الموج
كالجبال فتتأرجح السفينة وسط الظلام يقطعه هدير البحر الهائج .
وصيحات الاستغاثة . . أشهق في رعب . . ثم أبتسم وأنا أخطو في
جزيرة بديعة كلها زهور برية وأشجار عالية تتدلى منها ثمار المانجو
الشهية . أتوغل في الجزيرة التي بلا أصوات ، أرى المشاهد الملونة
واستنشق الروائح الزكية ولا أسمع سوى حفيف الأغصان ووقع قدمي على
الأرض . . أجفل فزعا وقد هبط الليل على النهار فجأة فأظلمت
الدنيا . كان طائر الرخ قد نزل الجزيرة فاردا جناحيه الهائلين ثم طار
وأنا أمسك بطرف مخلبه . رأيت الجزيرة كقرش صغير في المحيط
وضحك وأنا خائفة . . راح الخوف وبقيت أضحك وأنا في مدينة
عجيبة يتحدث أهلها بالمسكوس جملتهم تبدأ من آخرها . . أتصيب
عرقا وأنا أصعد جبلا شاهقا مغطى بالثلوج وأبلل شفتي بلعابي أكاد
أموت عطشا في الصحراء التي تمتد بامتداد البصر . ارتعد خوفا وأنا
في الغابة وتكاد ساقاي لا تحملانني ثم أبتسم ، أضحك وأنا أحيى
المستقبلين الذين جاءوا إلى الشاطئ لتحييتي .

وأعود إلى البيت . أجلس إلى مكتبي أكتب كل شيء وأرسم كل
شيء وأودع الأوراق الصندوق الذي يحمل اسمي . أغلقه وأحكم إغلاقه
بالقفل والمفاتيح . وعندما يأتي الناس لرؤيتي أحكي طويلا وأفتح
الصندوق وأطلعهم على الصور والنفائس فينبهون ويقولون خديجة
أكبر عالمة جغرافيا في العالم ويكون كلامهم صحيحا لأنني سأعرف كل
ركن وزاوية من هذه الدنيا تماما كما أعرف البيت الذي أسكن فيه .
ويكون كل شيء مسجلا بالرسم والكتابة في الأوراق المحفوظة في
الصندوق المعلق بقفل لا يحمل مفاتيحه إلا أنا .

افتتحت ورشة نجارة صغيرة في الشارع الجانبي الذي أطل عليه

من نافذة عرفتني . تابعت النجار وصبيه وهما يقطعان ألواح الخشب
بالمشار وينعمانها بالفارة ويعسدان الغراء على التار ويدفان ألواح
المسامير . بعد أيام من المراقبة نزلت الى المحل وعرضت أن أشاركهما
العمل . ضاقت عيننا النجار الصغيرتان حتى أصبحنا شرطيين في الثلث
الأعلى من وجهه المستطيل وضحك ، ضحك بصوت أجش عال أخافني
وجعلني أتساءل ان كان الرجل طيبا أم شريرا .

— يا ابنتي لا يمكن أن تكوني صبية في المحل لانه — لا مؤاخذه —
النجارة ليست شغلة نسوان . أعرف ، أنت تريدنيها هوية لكن
بالنسبة لي والواد محمد (أشار لصبي تلمع عيناه في العتمة النسبية
للمحل كعيني قط عسليتين) النجارة هي رزقنا وأكل عيشنا .

وعاد النجار للاهتمام بلوح الخشب الذي كان ينشره وهو يواصل
الضحك . رجعت الى البيت وأنا أجر قدمي أشعر بالخيبة ولا أفهم لماذا
ضحك مني النجار . ربما لم يقصد سوا حين ضحك ، ربما حين يتعرف
علي ويعرفني ويجد أنني ذكية وسريعة التعلم يرضى عني ويحبني . وهذا
الولد محمد لم يكف عن مراقبتي وأنا أتحدث مع النجار . كان يلبس
هذاء من المطاط وفانلة صفراء قديمة وبنطلونا رماديا مهترنا فلماذا
يقبله النجار صبيا ولا يقبلني ؟ قال انها ليست شغلة نسوان فلماذا
لا تكون كذلك ١٩

أقضى الساعات في مراقبة النجار من النافذة . ارفض أن العب مع
أحمد ومجدي ولا يشغلني الا اقناع النجار بالعمل معه . أحكى لأبي
فتقول أمي أنني فقدت عقلي ولكني ألح ، كل يوم أتحدث مع أبي في
الموضوع وأطلب منه أن يقنع النجار حتى كان ذلك اليوم الذي قال أبي
لأمي أنه تحدث مع عم عبد الله النجار فوجده رجلا عاقلا وطيبا وأنه
لا داعي للقلق . ولم أنتظر لاسمع باقي الكلام بل ركضت الى
الشارع ولم أتوقف الا أمام باب النجار الذي نظر الى بدهشة كأنه لم
يعه يذكرني وعندما ذكرته بنفسى ابتسم وطلب مني أن أجلس على
كرسيي وألاحظ ما يقوم به هو « والواد محمد لانه أسطى وشاطر ! »
أغاظتني الملحوظة لكنني قلت لنفسى ان الصبر طيب وقبلت بالجلوس
على الكرسي والمراقبة ولو مؤقتا حتى يقنع عم عبد الله بأنني أصلح .
وهذا الولد محمد لا يبيادلني أى كلام كأنني غير موجودة . انه ولد

مرور والغسور عيبا خطيرا وهذا ما أكدته مدرسة الحساب في المدرسة .

بعد أسبوع من الجلوس على الكرسي سمح لي عم عبد الله بمساعدته : أقلب الغراء ، أمسك لوحا من الخشب ، أدق مسمارا . تعلمت منه أشياء عديدة علمت بعضها لاحد ومجدي وفي البيت استطعت اصلاح مقعد كسر أحد قوائمه حتى أن أمي شهدت لي بالمهارة .

محمد لم يعد يتجاهلني وعندما أستفهم منه عن شيء يفهمه لي . انه ليس مغرورا أنه لطيف وذكي لكنه لا يعرف القراءة والكتابة . عرضت عليه أن أعلمه فقال : « ان شاء الله » ولم أفهم ان كانت اجابته تعنى الرفض أو القبول . كررت عرضي فقال على استحياء :
- كيف ومتى ؟

- هنا في المحل ، كل يوم أعلمك ساعة .
- مستحيل لأن الاسطى عبد الله سيقول أننا نضيع الوقت وأنه لايدفع لي أجرى كي اجلس وأقرأ في الكتب .
- اذن كل يوم جمعة تأتي لزيارتنا نتغدى معا وأعطيك درسين ، درس قبل الغداء ودرس بعده ، ما رأيك ؟
- صعب .
- لماذا ؟

تلعنم وكأنه غير موافق ولكني أقنعتة فوافق .
فاجأني غضب أمي حين أخبرتها بدعوتي لمحمد . قالت انني بلا عقل ولا أعمل حسابا لشيء . أمي تتصرف بشكل غريب لا يمكن فهمه وهي تلقي بالاوامر والنواهي بلا منطق . جلست أنتظر أبي لكي نتفاهم كما يليق بالعلاء والاذكياء . فاجأني أبي بتصرف أغرب من تصرف أمي : رفض رفضا قاطعا ثم أضاف :

- لو سمعت أنك نزلت عند النجار ساكسر رجلك ، مفهوم !؟
تركنتي دون أدنى احتمال في استكمال النقاش . أبي وأمي يفرضان رأيهما بلا وجه حق ، وبدون منطق فلماذا !؟ دخلت الحمام وجلست على حافة البانيو . بابا ليس غيبا ، أنا متأكدة ، فهل هو اذن ظالم ومستبد ؟ وما الذي سيقوله محمد ؟ سيقول خديجة كذابة وكلامها كلام عيال . ما العمل اذن ؟ لا أعرف ما العمل . فابكي قهرا .

بعد يومين، خرجت الى الشوارع وانحرفت مع سور الحديقة يمينا
الى الشارع الجانبى . ذهبت أولا الى البقال واشترت بكل ما معى من
نقود لوحا من الشيكولاته ثم اتجهت الى محل عم عبد الله .
- أشكرك يا عم عبد الله على الاشياء المفيدة التى علمتها لى . للاسف
لن أستطيع العمل معك لأن أبى يريد أن أساعده فى بعض الاسمال .
سلمت على عم عبد الله ولم أنظر الى محمد الذى كنت أشعر بعينيه
تتطلعان الى . وضعت لوح الشيكولاته أمامه وركضت عائدة الى
البيت .

قالت جدتي : « البنات كشجر الموز » فهزت أمي رأسها موافقة . ولم أفهم ما معنى كلام جدتي ولا سبب موافقة أمي على ما قالت . كانت جدتي لأمي امرأة صغيرة الحجم كثيبة الوجه ، لها عينان ضيقتان وجبهة ضيقة ووجه مجعد . وكانت تتحدث همسا وبصوت مبجوح فتذكرني بالسحالي . ولم أكن أطيقها ولا أطيق تعليقات أمي المستمرة : « ماذا تقول جدتك لو رأتك بهذا الشكل ؟ » « ماذا تفعل جدتك لو سمعت بهذا الموضوع ؟ » تعليقات لا تنتهي تجعل جدتي حاضرة بيننا في كل وقت رغم أنها لم تكن تأتي من البلد لزيارتنا الا مرة واحدة في السنة لا تكل فيها من الترحم على أيام زمان .

تزجرني أمي باستمرار وتكسرني « الولد أرحم » ولا أعرف لماذا تقول ذلك فانا أكثر تفوقا من أحمد ، أحصل على الدرجات النهائية في معظم المواد وأضمن حصول مدرستي على كأس المنطقة في كرة اليد وأنوي أن أصبح طبيبة وأعرف أنني سأتمكن من ذلك . ولكن أمي تقول : « الولد أرحم » وتنحاز لأحمد بلا وجه حق . تقول : « أنه أخوك ويريد حمايتك » فهل أنا كسيحة أو عمياء لكي يحميني . أنا أكبر منه وأفضل منه . قالت لي إحدى زميلاتي في المدرسة : « هكذا الامهات يفضلن الاولاد وينحزن لهم ، ويتعاملن معنا بقسوة غير مفهومة » فهل هذا صحيح ؟ يبدو صحيحا ، فلماذا ؟!

ليست الامور بيني وبين أمي على مايرام . شيء ما يعقدها ويعرقل سلاستها ، قلت لأمي وأنا أضحك : « التروس مزرجنة وهي بحاجة الى تزييت » ففضبت وتصورت أنني أهينها وأنا أحبها فكيف أهينها ؟ التي تهينني باستمرار وتكرر أن الولد أرحم !
- ماما قولي لأحمد أن يتركني وشأني .

- يا ماما كانت تطل من النافذة والولد الذي سكن مؤخرا في شارع الجيران لا يرفع عينيه عنها . نهني مجدى أن الولد وقح ولا هم له سوى مشاغلة البنات . قلت يا خديجة ادخلي ! رفضت فجدبتنا من

صغيرتها وأغلقت النافذة ، هل أخطأت ؟!

صرخت فيه :

- طبعاً أخطأت !

وانسحبت الى غرفتي وطرقت الباب عامدة .
تشكوني أمي لابي ، تقول أن جدران البيت كانت تستنهار من عنف

طرقة الباب . يقول ابي :

- غدا تكبر وتعقل .

وتقول أمي :

- لن تهدأ وتعقل الا عندما تزوجها .

أمي منحازة الى أحمد ، كلام زميلتي صحيح !

قالت لي أمي وهي تضحك :

- مبروك ياخديجة ، جاءك عريس .

نظرت اليها مستفهمة ، قالت :

- شاب ممتاز والده من الاعيان يملك أطيئسانا في المنيا . وأمه

رحمها الله ابنة عمه زوج زكية ابنة خالتي . يعني ناس من ثوبنا نعرف

أصلهم وفصلهم . والشباب عنده ٣٠ سنة وجراح ودرس في أوروبا

وشكله مثل القمر ، بصي !

وأبرزت لي أمي صورة لشاب له وجه مستدير وشعر أملس وشارب

صغير معننى به . كان وسيما . قلت وأنا أعيد لها الصورة :

- لا أريد الزواج .

- هذا هو البطر بعينه . لقد جاءنا السعد حتى بابنا فهل نتبغدد

ثم نعود ونندم ؟

- ولكني أريد أن أدخل كلية الطب ، وأنت تعرفين .

ضحكت أمي وربتت على كتفي :

- نحن لا نناقش دخول الجامعة . نحن نتحدث عن العريس .

- وماذا قال ابي ؟

- قال ان الشاب لقطه !

- ماذا قال عن دراستي ؟

- لم يقل شيئاً !

قالت أمي تستعجلني :

- تأخرنا .

- خمس دقائق وننتهي .

وقفت تراقبنا ونحن نلعب فى الحديقة . وحدى كنت أكون فريقا
فى مواجهة أحمد ومجدى وكنا نلعب كرة قدم . ضحكتم أوى وهى
تتابع كيف أراوغهما وأركض بالكرة حتى أصل المرمى . صوبت
وانتهت المباراة .

قلت لأحمد وأنا أطلع له لسانى :

- عندك حارس مرمى وأنا وحدى ومع ذلك غلبتكم ٢/٠ صفر تعيش
وتأخذ غيرها . بنا ياماما .

اقترحت أوى أن أغير ملابسى ولكنى قلت أن ملابسى نظيفة « بدلى
الحذاء على الأقل » ولكنى كررت انه لا داعى ونزلت بصحبتها انتعل
حذاء المطاط ذا الرباط وكنا نقصد حلاق السيدات .

دفعت أوى الباب الزجاجى ودخلنا فلفحت وجهى الحرارة رغم
المراوح الكهربائية الكبيرة المثبتة فى السقف التى رأيتها وسمعت
أزيرها . كانت المرة الأولى التى تصحبنى فيها أوى . جلست بعينى فى
المكان الذى كان صاحبها ومكتظا بالنساء : نساء أسلمن رهوسهن لرجال
يقصون الشعر ، يلفونه على لفافات أسطوانية صغيرة ، يفردونه
بالمكاوى الساخنة ، يصففونه ، نساء مددن أيديهن الى فتيات تشذب
لهن أطراف اليدين ويطينها بطلاء أحمر نارى ، نساء غمسن أقدامهن
العارية فى أطباق بلاستيك صغيرة مملوءة بالماء . العاملات والعاملون
منهمكون فى الشعر والأيدي والأقدام والنساء يتأملن أنفسهن فى
المرايا : المرايا الطويلة التى ترى فيها المرأة نفسها كاملة وبالبحجم
الطبيعى ، والمرايا النصفية التى تجلس الواحدة أمامها فتبصر نصفها
الأعلى ، والمرايا متوسطة الحجم فى الأطر الخشبية يمسك بها المصنف
فى مواجهة مرآة أخرى فترى الجالسة شكل رأسها من الخلف ،
والمرايا الصغيرة بحجم الكف لتأمل تفاصيل الوجه وتسوية الحاجبين .

- تفضل .

أوضحت أوى أن الشاب سيفسلى لى شعرى .

- أحل الضفائر ؟

- هو سيحلها .

حل لى الشاب ضفيرتى وقادنى الى مقعد جلدى وثير وراه حوض
معدنى . أحاط كتفى بمنسفة ثم أمال رأسى للخلف . أسلمت له
نفسى . غسل شعرى بالماء الساخن وصابون سائل أعجبتنى رائحته

النفاذة • عندما انتهى أتى بمنشفة أخرى ولف بها شعري المبلل •
قال الشاب مشيراً الى مقعد آخر : « تفضلي » •
جلست أمام مرآة نصفية كبيرة • جاء شاب آخر وسحب المنشفة
من على رأسي فسقط شعري الطويل على كتفي كثيفا ومبلا : استغرب
شكلي لانى عندما أغسل شعري أخرج من الحمام مباشرة الى أمي
وأجلس عند قدميها فتقوم هي بتصفيفه وتصفيره • الآن كنت أطالع
وجهي في المرآة ومن خلفه شاب متأنق يحيط بمعصمه بسلسلة فضية •
له لحية وشارب جعلاه يبدو كرسام إيطالي •

- قص 1

قالت أمي للشباب • سمعت صوتها دون أن أراها •
أمسك الشاب بالمقص وأداره في شعري • يخفى النصل اللامع
ثم يظهر فتساقط الخصلات السوداء على الأرض • أراقب كل شيء
في المرآة • يمسك الشاب بالمشط يفضل خصلة يمسك بها بيده
اليسرى بين الخنصر والوسطى وييده اليمنى التي تمسك بالمقص •
يقص الخصلات هكذا خصلة من بعد خصلة حتى أصبح شعري يغطي
أذني بالكاد والخصلات المقصوفة تفرش الأرض تحت قدمي • جاء
ولد بمكنسة لها يد طويلة وأخذ يكنسها •
لف الشاب خصلات شعري على لفافات صغيرة ثم أتى بمندبل من
الشبيك وقطعتي قطن • وضع على كل اذن قطعة ثم ربط الرأس
المتضخم باللفافات بالمندبل • كان منظري الآن غريباً يبعث على الضحك
ولكني لم أضحك •

انتقلت الى مقعد آخر تعلوه مجففة للشعر • دمسست رأسي داخلها
وأدار الشاب المفتاح فاندفع الهواء الساخن • عندما جف شعري
انتقلت الى المقعد الاول • فك لي الشاب شعري ثم أشعل موقدا غازيا
رفيما ووضع عليه مكواة الشعر حتى حمى حديدتها فأمسكها وراح
يحركها حركة دائرية في الهواء فماذا لو طارت هذه المكواة في وجهي
الآن ؟ أمسك بخصلة شعر وقبض عليها بين القضيبين المحميين فتحول
قلقي الى انزعاج وضيق • درت برأسي أبحث عن أمي فطلب مني الشاب
أن أنبت في مكاني لكي يتمكن من أداء عمله • سيستحرق هذه المكواة
شعري ولا أدري أين ذهبت أمي لاقول لها ذلك •

- هل هذه المكواة ضرورية ؟

- شعرك خشن وكثيف • ستجعله المكواة ناعماً الحرير •

— ولكنها ستحرق شعري .

ضحك الشاب وهو يعيد المكواة الى الموقد لتزداد سخونة ا

عندما انتهى من تصفيف شعري قمت لاعود مع أمي الى البيت .
البيت على نفسى نظرة فى المرأة الكبيرة . أحمد ومجدى لن يتعرفا على ،
وبل ساعتين تركتهما وشعري مفروق ومجدول فى ضفيرتين غليظتين
والان اعود اليهما وشعري ينسدل مالمسا يغطي أذنى بالكاد وخصلة
امامية تنزل على وجنتى اليمنى وتغطي ، لو ملت برأسى قليلا ، نصف
وجهى الايمن ، تماما كالممثلات . ابتسمت للفكرة .

قالت أمى ترد على ابتسامتى :

— لو سمعت كلامى وغيرت ملابسك لبدوت عروسا حقيقية ولكن

بهذا الحذاء الكاوتش . . . !

فى البيت تجملت وتعطرت وارتديت ثوبا من الحرير الوردى
وحذاء جديدا أبيض له كعب مدبب . وألبستنى أمى عقدا من اللؤلؤ
وقرطا صغيرا من الماس وزينت وجهى بالمساحيق . وكان أحمد ومجدى
يفغان خارج الحجره ينتظران أن يسمح لهما بالدخول . ولما دخلا كدت
أنفجر ضاحكة فقد وقفا متلاصقين يحدقان فى مستديرى العيون ،
لاغرى الفم ، معقودى اللسان . وعندما دخل أبى الحجره ضحك بصوت
هال فضحكا معه قلت : « بابا يضحك عليكمسا فلماذا تضحكان ؟ »
ولكنهما واصلا الضحك حتى استلقى أحمد على ظهره واستند مجدى على
الباب لكى لا يسقط من شدة الضحك . فبدأت أنا أيضا أضحك وقالت
أمى « الله يجازى شيطانكم يا أولاد » ثم وهى تغالب الضحك « اللهم
اجعله خيرا » .

كنت أضحك مع أحمد ومجدى ولكنى كنت متوجسة . الشاب
وسيم ويبدو ذكيا ولكنه عريس . سيأتى ويجلس مرتبكا وأجلس أنا
أمامه مرتببة ويمر الوقت ثقيلًا تقطعه أمى بكلام لا معنى له مداراة
للحرج ، هذا ما يحدث دائما فى الافلام .

لم يحدث . . . لم يكن العريس مرتبكا ولا محرجا بل كان يتحدث
بطاقة وألفة ويتصرف بشكل طبيعى كأننا نعرفه ويعرفنا . ظلمته
المصورة لانه كان أحلى : شعره كستنائى فاتح أشقر تقريبا ، وناعم
كالحرير وعيناه خضراوان تحيط بهما رموش طويلة ويعلوهما حاجبان
كثيفان يكادان يلتقيان فوق أنف مستقيم وبشفته امتلاء ظفيف وله
شارب أشقر صغير معتنى به ، كان وسيما كنتجم سينمائى وأنيقا كنتجم

سينمائي أيضا يلبس بدلة من الكتان الابيض وحذاء ابيض وربطة عنق من الحرير الكحلي وكان في بنصره الايسر خاتم ذهبي ينتهي من أعلى بمسطح بيضاوي عليه نقش لم أتمكن من التقاطه .
وكان كمال قد أتى مع أبيه : رجل فارغ الطول يميل الى السمنة يميزه شعر وشارب فضيان . قال :

- عندما نجح كمال في البكالوريا قلت لنفسي « يا صفتوت تعليم ابنك خير استثمار » وأرسلته الى انجلترا ليدرس الطب هناك .
وعندما تخرج وقال أعود قلت له أبقى حتى تخصص وتصير جراحا ماهرا وقديرا . تسع سنوات ، قال والد العزيس موجهها كلامه الى أمي : تسع سنوات وكمال يدرس في انجلترا . لم يخيب ظني أبدا سافر ناجحا وعاد ناجحا . عندها قلت له يا كمال حان وقت تزويجك والا ...

قاطعته كمال ضاحكا :

- والا فاتك القطار ولم تجد من ترضى بك !

• سأله أحمد :

- انجلترا جميلة يا دكتور كمال ؟

- طبعا جميلة . حضارة وتقدم وحرية ... ولكني أحب باريس أكثر من لندن .

سأله أحمد مبهورا :

- وهل زرت باريس أيضا ؟

- زرت لندن وباريس وروما وفيينا ومدنا أخرى كثيرة .

كانت أمي تصب الشاي وأنا أساعدها في تقديمه وكمال يواصل

- لندن كأمراة كئيبة تجثم على النفس بغيومها وأمطارها . أما

باريس فبهيجة كخديجة هذا المساء .

شعرت بالدم يصعد الى وجنتي وضحك والد كمال وأبي وأمي فزاد

ارتباكى وتشاغلتي بوضع الحلوى في الصحون .

- روما ترتبط في النفس بالدفء والحرارة . عندما أصلها أشعر

أنني على أعتاب مصر . اشتري شقة بطيخ من بائع متجول ، أثرثر مع

جاري في الاتوبيس ..

سألته :

- ولماذا لا تكتب عن رحلاتك في كتاب ؟

- لأنني جراح ولا أتقن عملا آخر - ثم أضاف وهو يضحك ويمسك

يديه - ألا ترين أن أصابعي أصابع جراح ؟

لم أر في أصابعه شيئا استثنائيا وكدت أسأله ما الذي يميز
أصابع الجراح ولكن غلبني الحياء .

قالت عمتي كريمة التي جاءت من البلد خصيصا لتبارك بالخطبة
إله عريس السعد وذكرتني بحكاية الشاطر حسن الذي يحمل عروسه
على حصانه الأبيض ولكنني تذكرت البجعة في الحكايات الاجنبية التي
سحلق فوق المدينة تحمل في منديلها طفلا وليدا . سيحملني كمال في
دبله ويظهر فأرى مثله أشياء كثيرة ، وأرى بلادا بعيدة ، وأصير
منه أتحدث بطلاقة وثقة وسط اعجاب الآخرين وانسحارهم .

ياخذني كمال الى النادي ويعلمني « التنس » . تطير الكرة بيننا
ونطير لنلحق بها ، يمينا ويسارا ، للامام وللخلف . تأتي جدتي لامي
لزيارتنا وتعرض لأنها لم تسمع من قبل عن عروسين يلعبان الكرة
وتعرض على ملابس التنس التي اشتراها لي كمال : جولة قصيرة
بيضاء وبلوزة قطنية بلا أكمام تقول انه ملابس غير محتشم ولا يصح
فتجيبها أمي : « انه خطيبها وسيعقد عليها الشهر القادم فتصبح زوجته
يفعل بها مايشاء ! » تمتعض جدتي . ونحن نركض ، نطير حتى تنقطع
أنفاسنا فنجلس لنشرب عصير الليمون ويمسك كمال بيدي يقبلها
فتعلو أنفاسي وتهبط ولا أدري هل هو الركن أم هي قبلة كمال
أشعر بها حارقة على أنامل .

نركض . . . نطير ، والايام أيضا . أتزين وألبس ثوب الزفاف
الأبيض ويرتدي كمال بدلة العريس السوداء ويتعطر . نسير بين صفيين
من البنات يحملن الشموع المضاءة . تتمايل أمامنا الراقصة على دقات
الدفوف ورنات الزغاريد وتنثر أمي وعمتي بكرة الملح المخلوط برقائق
ذهبية وعمليات فضية ، ويلتقط المصور الصور .

نركض ، نسير . تحملنا الطائرة الى مدينة جنيف . تتهادى بنا
المركب في البحيرة الهادئة ، يطوى بنا القطار التلال الخضراء ، ياخذنا
من المدينة ثم يردنا الى ضفاف « ليمان » والعشب المشذب وأسراب
النوارس . نضحك ونلعب ونمارس الحب والسياحة . يشتري لي
كمال طائرة من ورق ، كبيرة وحمراء ومهدبة بورق ملون ، أطلق لها
الخيوط وأتابعها وهي تملو في السماء الصافية . ينتهي الخيط ،
اندهش به ولكن الهواء يجذب الطائرة فأركض واضحك . تفلت
الطائرة من يدي فأتابعها وهي ترتفع في السماء وتبتعد .

نتناول العشاء في مطعم صغير على ضوء الشموع ثم نرقص على

عزف ناعم ينبعث من بيانو • أترك كمال يحركنى كما يشـهـتى •
أضحك أقول :

- أستطيع أن أقف على رأسى !

- تزوجت طفلة وكان ما كان !

فأشب على أطراف أصابعى وأقبله فى فمه قبلة طويلة ، هكذا فى
المكان العام • يضحك •

- تزوجت امرأة - طفلة !

نطير الى بيتنا فى القاهرة ، شقة جديدة واسعة تطل على ميدان
مصطفى كامل بقلب المدينة • يلتقط لى كمال الصور : فى الصالون فى
كامل زينتى ، فى السرير بملابس النوم ، أمام المرأة وأنا أصف
شعرى ، فى المطبخ وأنا أصنع له القهوة ، فى الحمام وأنا عارية •
أصرخ : « يامجنون ! » فيفتح آلة التصوير قاصدا اتلاف الفيلم « رأيت
كل الصور الرائعة ، وهذا يكفى ! » •

تنتفخ بطنى ويمتلئ ثدياى وتورم ساقاى وتثقل حركتى •

- الأسبوع القادم نحتفل بعيد ميلادك السابع عشر •

- بهذا الشكل !؟

- أنت رائحة •• بهذا الشكل !

أتأمل نفسى فى المرأة ما الذى يجعل كمال يقول أننى رائحة بهذا

الشكل ؟ أبتسم وأنا أفكر أن الحب أعمى !

أمى تشتغل السترات الصوفية وأنا أنتقى ملابس المولود والمهد
المبطن بالحريز « بنت ! » • سماها كمال زينب • بعدها بستين جاءت
البنات الثانية سميتها أنا سوسن • قال كمال « الحمد لله •• يكفى »
ولكنى كنت أريد الولد •• وجاء سعد بعد ذلك بأربع سنوات •

هل كنت أركض أم كانت السنوات هى التى تطير ؟ الخطبة وشهر
العسل وشهور الزواج الأولى والسنوات التى تلت • أكل وأشرب
وانام وأصحو أحمل وألد تحيط بى ألفة رقاقة يملؤها كمال بصوته
المميز وتعليقاته الذكية ورائحة العطر الذى يستخدمه وطريقته فى دق
جرس الباب عند عودته من العمل • وكنت وأنا فى البيت أطمس
الصغار وأحميهم وأعلمهم المشى والكلام أتطلع اليه وأتبعه بتلقائية ويسر
فى الطرقات التى يختارها ويحددها • كان رائعا ، وكنت أحبه •

أدرت المفتاح في الباب ودفعته فانفتح ، دخلت . غسلت يدي
وسنعت لنفسي فنجان قهوة . حملت الدلة النحاسية الصغيرة والفنجال
وركوب الماء على صينية فضية الى الصالة حيث جلست وأشعلت
سيجارة « ثلاثة عشر عاما مرت ، فكيف مرت ؟ » فأجأتني العبارة
التي طفت الى وعبي فجأة كأن شخصا آخر نطق بها وسمعتها
فادهشت . كان البيت هادئا وساكنا ولم يتغير أى شيء فيه تماما
كما كان في ذلك اليوم الذي دخلناه ، أنا وكمال للمرة الاولى ، ونحن
زوجان جديدان عائدان للتو من رحلة شهر العسل .

ساعتها انفتح الباب على السكون والاثاث ، المرأة في المدخل
متوسطة الحجم يعلو رفقها حامل من الأرابيسك عليه نسخة مفتوحة
من القرآن . ويفضي المدخل للبهو الفسيح تغطي أرضه ثلاث
سجاجيد عجمية يشغله ثلاثة أطقم متباينة من المقاعد ، طقم
« جوبلان » طرزت عليه يد شاغله مشاهد رعوية لامراء وأميرات
أوروبيين ، وطقم لويس الثالث عشر مكون من مقعدين وأريكة
ومنضدة خشبية ذات اطار محفور ومذهب ، وطقم عربي من
الخشب المطعم بالصدف . الصور في الأطر الذهبية معلقة على
الحائط ، والمنافض الببلورية وعلب السجائر المصنوعة من الفضة
موضوعة على المناضد الخشبية الصغيرة في الأركان بين المقاعد .

لم يتغير في المكان شيء ، يقولون : « خديجة سيدة بيت من
الطراز الأول . بيتها دائما نظيف وأولادها كالزهور » البيت مرتب
كالعتاد ولكنه اليوم موحش ، لسعد وحشة .

انه اليوم الاول في حياته المدرسية . أوصلته وعدت . لم يك
كاولئك الاطفال البلهاء الذين يملكهم الدعر لدخول المدرسة .
كان مقبلا ومنشراحا وجميلا كوردة متفتحة في القميص الابيض
والبنطلون الرمادي وربطة العنق الكحلية وشعره الاملس مفروق من

الجنب ومصنف بعناية ، قبلته ولوحت له بيدي فابتسم ولوح لي بيده وذهبت .

دق جرس الباب فقامت لافتح للخادمة . بعدها جاء الطباخ فأعطيته التعليمات الخاصة بما سنتناوله على الفداء . تصفحت الجرائد وقرات الصفحة الأخيرة وحظك اليوم وصفحة الوفيات .. حلت الكلمات المتقاطعة ثم لم أجد ما أفعله فذهبت الى الحلاق لتصفيف شعري .

أوقفت سيارتي أمام محل الحلاق ، نزلت ودخلت . قسسل لي الولد شعري ثم انتقلت الى مقعد آخر أمام المرأة وقام المصنف بلفه وعندما انتهى صحنى الى مجففة للشعر دستت فيها رأسي وامسكت بمجلة مصورة رحت أتصفحها .

الأولاد يكبرون ، وهاهو سعد يدخل المدرسة وزينب بلغت قبل ان تكمل الثانية عشرة ، انها تنمو بسرعة مذهشة ، بعد عام أو عامين ستفوقنى طولاً ... وسوسن أيضاً تكبر بسرعة ليس جسمها فقط الذى يتغير يوماً بعد يوم بل عقلها أيضاً . تقراً بلا انقطاع وعندما ترفع عينها عن الكتاب لا يسمع المرء منها إلا كلمة « لا » انها عنيدة والكتب تغذى عنادها . أشكوها لايها يقول : « هكذا الاطفال فى هذه السن يريدون تأكيد شخصيتهم » ولماذا سوسن هى التى ترغب فى تأكيد شخصيتها وليست زينب وهى الأكبر ؟! سوسن عنيدة وأبوها يفسدها بالتدليل ، يفسدهم كلهم وعلى أنا ان أمر وانهى وأعاقب وأحذر وأوجه .. على ان أربى بمفردى وهو قائب ، مشغول ، فى الصباح فى المساء فى الليل دائماً مشغول . يظلبونه فى التليفون بلا انقطاع يقول « غير موجود » وعندما يكون فى البيت ويرد يتحدث ثم يضع السماعة ويقول : « آسف ياخديجة لدى عمل ، لابد ان أذهب ! » حتى الأجازات القصيرة يفزوها أصدقاؤه وزوجاتهم اللاتي لا يخفين أعجابهن به ويحيطون به كالذباب . « تعالى ياوالد خفض حرارة هذا السيشار سيحرق رأسي ! » قالت له باكمال : الامور هكذا لم تعد محتملة . لقد قضيت السنوات الأخيرة أنتظر ، أنتظر قدومك للفداء ، أنتظر قدومك للمساء ، أنتظر عودتك فى الليل متأخراً .. فقط أنتظر ! .. قال « سامحيني ياخديجة ، لم أقصد أبدا الا سعادتك » ووعده ان نذهب معا لقضاء اجازة « فى الاسكندرية ؟ » « اجازة فى لبنان ،

هديتى لك بمناسبة عيد ميلادك الثلاثين » ولكنى لا أريد أن أبلغ
الثلاثين ! » رفعت المحففة عن شعرى وتحسسته كان قد جف
تماما فقمتم وجلستم أمام المرأة لكى يصف لى الشاب شعرى .
هتف احد اصداق كمال حين عرف أن لى ثلاثة اولاد « لا اصدق ! »
ضحكت وقلت « عليك أن تصدق ! » اقيت نظرة اخيرة على المرأة ،
كان الشاب قد صفف لى شعرى بشكل جميل ، شكرته وغادرت
المحل وأنا افكر اننى ابدو حتى وأنا على ابواب الثلاثين صغيرة
وجميلة .

مساء الخميس كنا ننتظر ضيوفا على العشاء رويت كل شىء
قبلها بيومين ، اعطيت قائمة الطعام للطباخ والمال اللازم للشراء .
اوصيت على زهور ، اخرجت الفضية واكواب « الكريستال » وطقم
الاطباق « الليموج » الفرنسى .

الخميس عصرا لم اتم بل ذهبت الى الحلاق ، صفت شعرى
وعدت . دخلت المطبخ وتأكدت من سير الامور فيه . كان الطباخ
- كمادته ايام الولاثم - قد احضر شابين اسمرين لمساعدته . وكان
لثلاثهم منهمكين فى العمل وسط البخار المنبعث من الحلل والصوانى ،
فوق الموقد وفى داخله .

تركت المطبخ . وذهبت الى حجرة الاولاد . كانت زينب وسوسن
جالستين كل الى مكتبها تؤديان واجبهما المدرسى اما سمعد فكان
منهما فى اللعب بقطاره الكهربائى . سألت البنيتين متى تنتهيان
فاجابت زينب أن امامها نصف ساعة اخرى . اما سوسن فاعلنت
تدمرها من الواجبات التى لا معنى لها سوى تعذيب التلاميذ
« ويا ماما عندما اكبر ... » قاطعتها وطلبت منها أن تكف عن
« الفلسفة » وتكمل واجبها . وأكدت على زينب أن تفصل بسعد
يدبه وقمه بعد العشاء وأن تلبسه البجامة وتضعه فى السرير .
كالمعتاد وصل كمال متأخرا وتمتم معتذرا وهرولا ليفتسل وبغير
ملاسه ثم امتلا البيت بالضيوف وكاتوا جميعا من اصداق كمال
وزوجاتهم .

للسهرات فى بيتنا مسارها المعتاد . حتى وأن جلس الضيوف
مثنائين ، تلقائيا وبعد وقت قصير يفصل الرجال ويتحدثون معا
فى الموضوعين الاكبرين لديهم : الطب والسياسة . أما النساء
فينتقلن لبتها مسمن باخر الاخبار : « فلان برافق فلانة . » ، « زوجة
الدكتور علان طلبت الطلاق من زوجها عندما عرفت بأمر زوجته

الأخرى » ، « فلانة مهتمة بفلان وتبعه كظله » . يتداخل كلامهن عن الناس مع آخر الطرائف والنوادر الصادرة عن أولادهن . والتي تنم دائما عن ذكاء الأولاد وتميزهم ، يتفاخرون بأولادهن كما يتفاخرون برحلاتهن الأوروبية وما حملته من مشتريات وأحيانا يجنح الحديث الى الشكوى من الخدمات اللثيمات .

ولم أكن أجد متعة شخصية في النسيمة ولا في الكلام عن عبقرية أولادى أما الحديث عن الأسفار فلم يكن لدى ما أقوله لأشاركهن فيه ، كانت سفرتى الوحيدة هى تلك التى صحبت فيها كمال لقضاء شهر العسل قبل ثلاثة عشر عاما ، بعدها جاء الأولاد وكان كمال يسافر دائما بمفرده .

كنت أجد كلام الرجال أكثر طرافة واثارة للاهتمام ولكن كان على أن أجامل النساء وأشاركهن الحديث . وكانت واجبات الضيافة بما تعلمه على من قيام مستمر للإشراف على تقديم المشروبات واعداد الطعام تكسر شعورى بالملل وتفقدنى من الوقوع فى حرج عدم المشاركة .

طلبت المشروب فجاء أحد الشابين الاسمرين وكان الآن يرتدى بدلة سوداء ، دار بصينية من الفضة عليها كئوس عصر البرتقال . تبعته بعينى وعندما انتهى همست له بأن يبلغ الطباخ أن يبدأ فى قرف الطعام بعد ربع ساعة .

كانوا جميعا الآن يرشقون عصر البرتقال وهم ينصتون لحديث كمال عن رحلته الى أمريكا .

— انها حقيقة رحلة العمر ، كل شيء ، كل شيء فى أمريكا مبهر من ناطحات السحاب الى الحراجات متعددة الطوابق تحت الأرض . ولكن كل هذا فى كفة ومستشفى الدكتور سالينجر فى كفة . قلت وأنا أضحك :

— منذ عودته وهو لا يتحدث ولا يفكر ولا يحلم الا فى هذا المستشفى ويريد أن يبيع الأرض التى ورثها عن أبيه ليشتري قطعة أرض للبناء هنا فى القاهرة ، اليس هذا تهورا يادكتور سالم ؟ قال الدكتور سالم :

— يا كمال ، بيع أرض أبىك ومجوهرات زوجتك واضف اليهما مدخرات العمر وابن المستشفى . عليه وعمره وجهزه بالاجهزة والاثاث والمرضى والمرضات فياتى عبد الناصر ويأخذها كلها على الجاهز !

لو أن والد كمال ، رحمه الله ، كان معنا لوجد في الحديث مرضوعه المفضل . كان يحب الجلوس مع الدكتور سالم يمضيان الوقت في انتقاد عبد الناصر وسياساته . بيد أن همسا ثم يعلو صوتهما وهما يسبانه ويدعوان عليه . كان عمى صفوت بعد الأيام في انتظار الخلاص منه يسأل الدكتور سالم « مارأيك يا دكتور ، ألم يقصر عمره ؟ » فيقول الدكتور « والله يا صفوت بك أرى أن عمره قصر ! » فيقول عمى صفوت « هل تقوم عليه ثورة ؟ » فيبتسم الدكتور سالم وهو يقول « وإن لم تقم ربنا كريم يأخذه ويخلصنا منه ! » كان عمى صفوت بعد الأيام ولكن المسكين توفي ومازال عبد الناصر على حاله قويا ومهيمنًا !

قمت لالقي نظرة على المائدة قبل أن أدمع الضيوف للجلوس . المائدة ممتدة بالأطعمة المتنوعة : الفطائر المحشوة باللحم المفروم ، محشى ورق العنب ، البامية المطبوخة باللحم الضأن ، السلطات : السلطة البلدية ، سلطة « بابا قنوج » ، سلطة الزبادى ، وسلطة السمك بالمايونيز ، اللحوم : شرائح اللحم البقرى المزين بالخس والطماطم وأرباع الدجاج المحمر تحيط بها حبات الباذلة الخضراء ومكعبات الجزر الأصفر . أما أطباق الغرف والشوك والسكاكين والملاعق والقوط البيضاء المنشأة فصفت بنظام على « البوفيه » الصغير كما صفت الأطباق الصغيرة مع الشوك والسكاكين والملاعق الصغيرة المخصصة لكل الفواكه والحلوى بجوار سلة ضخمة تحمل ثمار الخريف : حبات المانجو الخضراء والجوافة عاجية اللون والبلح الزغلول الأحمر . وبجذاء السلة وضعت ثلاثة أطباق كبيرة من الفضة في أولها كنانة وفي ثانیها بقلادة وفي ثالثها بسبوسة .

درت بعينى في المكان ، تأكدت من أن كل شيء كما يجب ويليق . وكان الشبان الأسمران يقفان كل في ركن استعدادا لخدمة الضيوف ازحت الستار الفاصل بين حجرة الطعام والصالون قائلة وأنا ابتسم : تفضلوا ! .

شيء ما كان بيدي ، أقبض عليه ، افتح قبضتي فجأة فلا أجده .
ابكي ، ابحث في كل مكان . هل سرق ؟ من سرقه ؟ هل سقط مني ؟
هل تسرب من أصابعي وأنا في غفلة ؟ ومتى تسرب ؟ أستيقظ من
نومي فأجد الدموع على وجنتي وانخطافة في قلبي « اللهم اجعله
خيرا ! » انه كابوس ، مجرد كابوس ولكنه يتكرر . أذهب للزيارة
أمي وانتظر عودة أبي من عمله حتى أراه بنفسى واطمن . آخذ
الاولاد الى الطبيب ليفحصهم فيؤكد لي ان صحتهم ممتازة . ولكن
الحلم يتكرر أحدث كمال في الامر فيسألني : « هل يضايقتك
شيء ؟ » « لا يضايقتني شيء ! » ينصحنى الا أسرف في الأكل على
العشاء وان آخذ حماما دافئا قبل النوم .

يوقظني كمال من نومي . أسمعته يقول :

- خديجة ماذا جرى ، تبكين وانت نائمة ؟

استوى جالسة وأسأله :

- كمال ، هل تحب امرأة اخرى ؟

يقول ضاحكا :

- هل الجنون يبدأ بالاحلام ؟

ما الذي كان في يدي ؟ ما الذي يمكن أن يتسرب من بين الأصابع
كالماء ؟ أسأل نفسي فيناديني سعد ويطلب مني أن أضعه في الفراش
ويلح أن أنمدد بجواره حتى ينام فألبى له طلبه . أحيطه بذرأعي
وأشعر بجسده الدافئ على صدري . يستغرق الولد في النوم .
أسمع انفاسه المنتظمة وأرى حبات العرق على جبينه أقول لنفسى
اننى سأراه طبيبا عظيما يملأ الدنيا بنجاحه وضحكاته . أطبع
قبلة على وجهه وانتزع نفسي من الفراش .

أصحو مبكرة على غير العادة وأعد للاولاد الإفطار قبل ذهابهم
الى المدرسة . أصبحهم حتى الباب وأودعهم كأنهم مسافرون وانتظر
عودتهم بلهفة وقلق . كمال ينصحنى الا اترك نفسي للأوهام : « انه
مجرد حلم وقد تكونين مرهقة » يقترح أن أسافر الى الاسكندرية

مع الاولاد ما ان ينتهوا من الدراسة « سأستأجر لكم بيتا هناك
نضون فيه طوال اشهر الصيف » الصغار سعداء بالفكرة . بعد
الامتحانات يحملنا كمال بسيارته الى الاسكندرية ويقضي معنا
هناك يوما واحدا وفي فجر اليوم التالي يفادونا الى القاهرة .

البيت الذى استأجره لنا كمال يقع في شارع جانبي هادىء
لا يبعد كثيرا عن شاطئ البحر وهو بيت من طابق واحد وله شرفة
واسعة ويحيط به سياج تغطيه شجيرات الياسمين يقوم على خدمتنا
شاب يشتري المثلوب من السوق قبل مجيئه في الصباح ثم ياتى
وينظف البيت وبعد الغداء يذهب . يستيقظ الاولاد مبكرين
وينتظرون حتى استيقظ ، نتناول افطارنا معا ثم نذهب الى البحر .
اتركهم يسبحون ويلعبون الكرة ويبنون قصورا في الرمال وأجلس
في شرفة مقهى الشاطيء احتسى القهوة وأدخن وأتصفح المجلات
واراقب زرقة البحر الممتدة والأمواج وهى تتعاقب ، تملو وترتطم
بالاحجار المكعبة الضخمة التى تحول بينها وبين الشاطيء . أدخن .
واراقب الرذاذ المتطاير والزيد وانحسار الموج وتملا رائحة البصر
أنفى وتختلط برائحة القهوة التى أحتسيها .

في الثانية ظهرا نعود الى البيت نتناول غداءنا ثم نستريح
قليلاً وفي العصر نتمشى على الكورنيش . وعندما نعود نتناول عشاءنا
في الشرفة ثم يذهب الاولاد ليناموا وأبقى انا أدخن حتى يقبلنى
النعاس فانام . الاولاد سعداء يأكلون كالدئاب ويستمتعون بالبحر
والشمس ورمال الشاطيء ويقضون الامسيات في الشرفة يضحكون
بسبب وبلا سبب . يتبادلون النكت والحكايات ويتفننون في ابتكار
الالعب والتسالى . سوسن تقلد مصطفى كامل في وقفته وحركة
ذراعه وخطابه وتكرر بحسرة « نسيت أن آتى بطربوش جدى صفوت
من القاهرة ، حمارة ! » ورقم غياب الطربوش كانت سوسن تقوم
بدورها المفضل كل ليلة فأضحك وأنا أراها تخلط الكلمات الماثورة
للزعيم بكلام من عندها طفولى تلقيه بصوت عال ولهجة خطابية .
أقول لسعد : « وانت ياسعد ماذا تريد أن تكون عندما تكبر ؟ »
فيجيب بجدية « عسكري مرور » فأضحك « ولماذا عسكري مرور؟ »
« لكى أفتح فى الصفارة فلا تقولوا أسكت وجمت دماغنا ! . »
فأقول له دون أن أضحك هذه المرة أنه سوف يكون طبيبا كبيرا
كأبيه . وأسأل « وانت يا زينب ؟ » فلا تمهلها سوسن : « زينب

أختي ستكون أما حليلة ورحيمة وستملا طيك البيت بالاحفاد
... ستخلف طفلا كل تسعة أشهر فيكون في بطنها واحد وعلى
صدرها واحد وفي يدها واحد وفي ذيلها واحد ، وواحد على السرير
وواحد على الشجرة وفي الحضانة واحد وفي المدرسة واحد وفي
الجامعة .. « تقاطعها زينب محتجة : « والله أنك سخيفة ! »
وتجيب سوسن ساخرة : « فعلا لقد أخطأت ، تصورت زينب حليلة
مع الصفار ، وهاهى لا تحتلمنى مع انى أصفر منها ... أقول لكم
ككته ؟ » وتنقل سوسن الحديث الى مساحة أخرى من الهزل
فيضحكون وأضحك ثم يقولون « تصبحين على خير ياماما » ويلهبون
للنوم .

أبقى في الشرفة وحدى ويقلب الصمت على المكان يؤكد صوت
انكسار الموج على الصخور الهائلة وصرير حشرة ليلية ... لا شيء
... يتقدم الليل .. ما الذى يشرب من بين أصابع اليدين كأنه
الماء ؟ !

تمر الايام تجرى تقطر في ذيلها الاسابيع والشهور . ولم تكن الشعرة البيضاء في مفرقى التي فاجأتني ونزعتهما هي وحدها التي دفعت بالفكرة الى خاطري ولكنهم الاولاد الذين اراهم يكبرون كل ساعة . قالت عمتي كريمة عندما جاءت من البلد لزيارتنا معلقة على جسد زينب التامى « لقد خرطها خراط البنات » وضحكت نظرت الى زينب فأدهشنى تكور ثدييها واستدارة ردفها ، رأيتها امرأة سفيرة أمام عينى ، هكذا بسرعة ! اجتاحنى شعور كأنه قلق او رهبة او ضيق أو ربما خوف معجون بفرح . لا يكبر جسد سوسن بنفس السرعة عقلها هو الذى يكبر وعنادها انها عنييدة صاخبة متمردة ومتمبرمة بداع وبلا داع قالت لابيها انها تريد دراجة فأجابها باستغراب: « وأين تركيبها ؟ مثل الناس ، فى الشارع ! » فقال لها ابوها انها بلا عقل : « اننا نسكن فى وسط المدينة وسيل السيارات لا ينقطع فهل تركيب دراجتك فى ميدان مصطفى كامل أم فى شارع قصر النيل أم تتنزهين بها فى ميدان العتبة ؟ » قالت « اذن اشستركوا لنا فى ناد ! » .

تلقت منها سعد وزينب الفكرة وأخذوا يلحان معها حتى استجاب ابوهم لطلبهم .

أيام العطلات أخذ الاولاد الى النادي ، تلتقى زينب بصديقاتها وتركب سوسن دراجتها ويلعب سعد فى حديقة الاطفال اما انا فأجلس وحدى أو مع آخرين عندما يصبحنا كئال يصبح اليوم مختلفا نتمشى معا ، نتحدث ، نحتسى القهوة وندخن ونضحك ، أشعر بالسعادة ولكن كمال نادرا ما يأتى معنا .

فى النادي عدد كبير من زوجات الاطباء زملاء كمال . عندما يتمحننى يأتين نشرب قهوتنا معا . يتخذن عن اولادهن ومتاعب الخاديات والموضات الجديدة فى الملابس ويثرثن بآخر الشائعات حول أزواج الاخرى ، يثرثن بلا توقف وأعجب من قدرتهن الفائقة على الكلام المتصل . انصت وابتسم أحيانا أعلق ولكنى لا أجد شيئا

ذا بال أقوله وكثيرا ما اتساءل كيف يحتفظ المرء بقدرته على الثروة بعد تجاوزه سنوات الطفولة . ولكنى لم أكن أضج بحديثهن فلولاه لمرت على ساعات ثقيلة أجلس وحدى أنتظر أن ينتهي الاولاد من اللعب .

كان يوما خريفيا دافئا وكنت أجلس وحدى عندما سمعته يهتف باسمي ، أدت رأسي ولم أتعرف عليه . كان في الوجاهة الياف ، الابتسامة ربما لكنى لم أعرفه الا عندما قال اسمه انه مهنى ، الولد الصغير الذى كان يشاركنى اللعب مع أخى احمد لكنه لم يد ولدا بل رجلا ، شاب مربع مفتول العضلات يظهر شعر صدره الاسود الكثيف من فتحة قميصه . اسمر له شارب كث ويلبس نظارة طبية ويتحدث بصوت خشن ؟ صوت رجل .

جلس مجدى وطلبنا القهوة وضحكنا طويلا ونحن نسترجع ذكريات طفولتنا والخناقات اليومية التى كانت تنشأ بيننا . قال وهو يضحك « عندما كنا نختلف تتركينا معلنة أنك لن تلعبى معنا طول حياتك ونحن أيضا نعلن أننا مخلصينك والى الابد » . قلت وأنا ضاحك : « وبعد ربع ساعة نختلف الاسباب لكى نتصالح ! » .

صرنا نلتقى ، انا ومجدى ، نجدد صداقة الطفولة ، نثرز ونواصل ويقول مازحا : « لكن الغريب يا خديجة أنك لا تتشاجرين معى ... فكيف ؟! » فاضحك « لم أعد أتشاجر مع احد ! » يضحك ويقول « غريبة ! » .

سألنى عن احمد فحكيت : « سافر للدراسة فى أمريكا ثم قرر الإقامة هناك وهو الان متزوج وله بنتان . لو تسألنى ان كان سعيدا سأقول لك انى لا أدرى فهو بعيد ، لا يكتب الا بطاقة فى المناسبات ويتصل ب تليفونيا بأبى وأمى مرة فى السنة . وهما يعيشان على أمل عودته وكان رجوعه الى البيت سعيده الى عمرهما شبابا لو رايت أبى الان فلن تصدق عينيك » .

جاءنى مجدى بلقافة كبيرة وقال وهو يفيض الغلاف بها صورة اشتراها قبل عشر سنوات . كانت الصورة لامرأة من التاريخ القديم لها وجه مستطيل وأنف مستقيم وشفتان بهما شيء من ابتلاء وعيناها سوداوان لوزيتان مسحوبتان بشكل ملحوظ من طرفيهما . وكان قرطها الطويل وعقدتها متعدد الافرع يؤكدان جمال عنق المرأة وطوله . وكان يعلو رأسها تاج مرصع .

- ملكة سومرية قديمة .
 - الا تعتقدين أنها تشبهك ؟
 - لا ، لا أرى أى شبه .
- قال مجدى بعناد :

- بل انها تشبهك ، أنت أحلى قليلا ولكنها تشبهك !
حدثت أبى وأمى عن لقائى بمجدى وحدثت كمال أيضا ورتبت أن
نساول جميعا الغداء معا يوم جمعة بالنادى بعدها دعانا الى بيته ولما
ذهبنا فاجانى تميز المكان . كانت شقة صغيرة ولكنها مؤثثة بما ينس
من ذوق رفيع فأناثها من الطراز العربى المصنوع من الخشب المطعم
بالصدف وأبسطتها من نسيج الانوال الشعبية زاهية الالوان والنباتات
المنزلية الخضراء تضى على المكان خصوصية وجمالا . وكانت صورة
الملكة السومرية التى قال أنها تشبهنى تحتل مكانا فى مكتبة كبيرة
تصدر الحجره التى جلسنا فيها .

أكلنا وشربنا وتحدثنا وضحكنا وترىع الاولاد على الارض يتابعون
الحديث فى شغف وعندما غادرنا قال كمال ان مجدى شاب لطيف وذكى
و « لا تنس يا خديجة ان تدعيه الى بيتنا فى أول وليمة قادمة » وقالت
أمى وهى تدب بخطوتها الثقيلة على السلم « ذكرنا بأيام زمان التى
لا تعوض » . وقال أبى وهو يمسك بذراع كمال يستند اليه : « كان
ينقصنا أحمد ، عندما يرجع بالسلامة سادعو مجدى الى بيتنا ونجده
هذه السهرة الجميلة » .

أصبح مجدى صديقا حميما يلجأ الى يطلب مشورتى فى كل
صغيرة وكبيرة . انه وحيد وغير مستقر وأنا كأخته .

حلمت أننى أزوره فى بيته الذى كان جميلا كما فى الواقع ، اجمل
ربما مما فى الواقع : زرع أخضر وأرابيسك . قال انه يريدنى قلت
أن ذلك مستحيل ولكنه عندما مد يديه الى تماقنا وكان شىء ما يهوى
فى داخلى من حلقي الى صدرى الى معدتى الى أسفل بطنى ، شىء ما كأنه
روحى . استيقظت من نومى فزعة وأنا اكرر ان ذلك غير ممكن وغير
صحيح لانه أخى ولا أحد يقبل أخاه بهذا الشكل لا فى الحقيقة ولا فى
الاحلام ولكن الحلم ظل يتعقبنى كأمر واقع لا أملك إنكاره وكنت
أتساءل : « هل يريدنى مجدى ؟ وهل أحسست برغبته بشمكل تلقائى
لم أعيه ؟ » ولكنى امرأة متزوجة وأحب زوجى وأولادى وهو صديق
وليس سوى صديق فما الذى يريده منى !؟

لم أذهب الى النادى لاسبوعين متتاليين وعندما ذهبت رايته

فسأل : « ما بك ؟ » قلت : « لا شيء ! » قال : « وجهك ممتقع »
قلت : « ألم أقل لك اننى كنت متوقعة » قال : « اعتنى بنفسك أم
تريدىنى أن اعتنى أنا بك ؟! » وضحك فماذا قصد بهذا الكلام .
ناديت على الاولاد وغادرت الى البيت .

وجدت خطابا غراميا فى دولا ب زينب . كنت دائما أتوقع أن أجد
رسالة من هذا النوع بين ملابس كمال . أبحث أحيانا فى جيب سترته ،
بين قمصانه ، فى حقيبته ولا أجد شيئا . ولكنى اليوم وجدت خطابا
موجهما لابنتى زينب من شاب يقول لها أنه يحبها ، يحب عينيها وشعرها
واسمها وكل شيء فيها « ماشاء الله ! » وأنا كالطرطور لا أعرف من
أمر ابنتى شيئا !

ما أن عادت من المدرسة حتى أخذتها الى غرفتى وأغلقت الباب .
واجهتها بالرسالة ، ضربتها وشتمتها وصرخت فيها قائلة : ان البنات
التي لا تحترم نفسها لا يحترمنها أحد . قلت لو تكرر هذا الامر فأنا
أندرك سأحبسك فى البيت ، لا مدرسة ولا نادى حتى باب البيت لن
تريه بعينيك !

لم تظهر زينب على مائدة الغداء سال كمال سوسن : « أين
أختك ؟ » أجابته : « عندها صداع ، أخذت مسكن ونامت » ونظرت
الى وشفتاها مزمومتان . هذه البنات وقحة !

فى المساء دخلت حجرة البنتين فوجدت زينب تبكى . زجرتها
وهدهتها بالضرب ان لم تكف « ويكفى دلح وقلة أدب ! » قالت
سوسن انها تريد أن تتحدث معى « على افراد ! » عجيب أمر هذه
البنات . لحقتنى الى غرفة نومى وأغلقت الباب .

— ما فعلت به زينب غلط .

— لا تتدخلى فيما لا يعينك . أنا أمها وأرببها كما أرى مناسباً .

لقد أخطأت ومن حقى أن أعاقبها !

— ماذا فعلت لكى تعاقبها بالضرب ؟!

— ليس هذا من شأنك ، هى تعرف وهذا يكفى !

— أنا ايضا أعرف . لم يكن سؤالى استفهاما ، كان احتجاجا ! .

شاب كتب لها أحبك وهى حتى لا تعرفه فتمينها كأنها أجمت .
كان ذلك أكثر مما يحتمل الانسان . كظمت غيظى وتماكنت نفسى
بما يكفى ولكنى لم أستطع التحمل نظمتها على خدها وأنا أصرخ فيها:
— ما شاء الله ! هل تعطينى دروسا فى التربية ؟! أنا الأم ، أنا
أمر وأنا انتهى وانتم تطيعون فقط وبلا نقاش .

قالت وهي تترك الحجرة :

- أنت مخطئة ياماما !

أغلقت باب حجرة نومي بالمفتاح . كنت حزينة وغاضبة من تهور زينب وسلوكها غير المسئول . من تبجح سوسن ووقاحتها . ماذا أفعل لو أغلقت البنتان ولم أستطع لجمهما ؟ ستكون مصيبة ، سيقول الناس فشلت خديجة في تربية بنتيها وكما لا يقول أيضا سيقول نفس الشيء رغم أنه لا يساعدني وعندما أشكو له يقول انها مسئوليتي وان واجبه أن يعمل خارج البيت ليوفر لنا الحياة الكريمة .

أخرجت مندبلا مطويا من درج الخزانة الصغيرة ومسحت دموعي ثم تمخطت . جلست على المقعد المقابل للسريز وأشعلت سيجارة . من يدري ، ربما كانت هذه الرسالة ناقوسا عسغيرا ينبهني الى أن البنت كبرت وأن علي أن أكون أكثر حرصا . لم تعد زينب طفلة بل أصبحت فتاة يهاها الشباب ويكتبون لها خطابات الفرام . هل حان وقت التفكير في تزويجها ؟ تمخطت وأشعلت سيجارة أخرى . ليست زينب هي المشكلة ، وقد تكون أخطأت ولكنها ترتدع وتطيع أما سوسن فياخوفني من سوسن .. كانت تنظر الى بصفاقة ، انها لا تخافني ، ولا تخاف أحدا .. فما العمل في بنت لا تخاف أحدا ؟!

سألني كمال :

- ما بك ؟

- لا شيء .

- كنت تبكين .

- سوسن قليلة الادب ، كنت أوبخها فردت علي بشكل لا يليق .

- ووبخها كما يحلو لك ولكن لا داعي لان تنهي توبيخك بالبكاء !

لم أقل له شيئا عن موضوع زينب لكنني حكيت الحكاية كلها لمجدى

عندما التقيت به قال :

- لا تظلمي البنت قد يكون الشاب أعجب بها عن بعد وأرسل لها

هذه الرسالة . كلنا فعلنا ذلك في مراهقتنا .

- أنت كنت تفعل ذلك ؟

- طبعا !

- كلام مجرد تقوله لتخفف من حدة غضبي على البنت .

- والله اني كتبت عشرات الرسائل الغرامية لبنات لم أكن أعرف

عنهن أكثر من الاسم الاول .. أرى بنت الجيران في الشرفة أو في

الشارع عائدة من المدرسة فأقع في جيبها وأقضي الليل ساهرا أتفزل

فى شعرها وعينها على الورق •
- ولكنك لم ترسل لى أبدا رسائل من هذا النوع ، ألم أكن أنا
بنت الجيران ؟
ضحكت أما هو فلم يضحك • وعاد بالحديث الى موضوع زينب
ونصحتنى أن أتحدث معها بهدوء فقلت له أننى لن أتمالك نفسى لانى
غاضبة « لم لا تتحدث أنت معها ؟ » فحدثها •

بعدها قال :

- ظلمت البنت يا خديجة ، كما توقعت ، الشباب أعجب بها وهى
لا تعرفه • لقد أرفق بالخطاب صورة له لكى تميزه عن الشباب الأخرين
مجدى صديق أصيل وهو يساعدنى فى تربية الأولاد • محظوظة
من تتزوجه •
- لماذا لا تتزوج يا مجدى ؟
- لو تجدى لى عروسة أتزوج !
- هل تمزح ؟
- أبدا •• هذه الفتاة ذات الشعر الأسود التى ألب معها « بنج
بونج » انها لطيفة جدا فكرت أكثر من مرة فى امكانية ••
- ولكنها صغيرة ، انها فى عمر زينب ••
- لا أدرى ، ربما •
- قلت وأنا أضحك مداراة لشعور مفاجئ بالهرج •
- اذا كانت فى سن زينب •
- تكون أيضا فى سن سوسن ، ألم تقولى أن الفرق بينهما أقل
من سنتين •

- لم أقصد •••

- خديجة هل تعطينى سوسن ، لو قلت نعم أنتظر •
- أعطيك زينب •
- ولماذا لا تعطينى سوسن !؟
- زينب أطيب وأحل وهى الأكبر
- ولكن سوسن هى التى تشبهك •
- سوسن لا تشبهنى ، انها عنيدة ولا تخاف أحدا •

طلب مجدى يد زينب من أبيها فوافق ولكنه اشترط الا يتم اعلان

الخطبة رسميا الا عندما تتم زينب عامها الخامس عشر وفاتحت أنا زينب في الامر فاستغربته ثم وافقت ولكنها لم تبه حماسا الا عندما تحدث مجدى معها . سألتها « ماذا قال لك هذا العريس الماكر ؟ » لتدخل مجدى قائلا : « انه سر بيننا » ثم وهو يضحك « ماذا جرى يا خديجة ، هل بدأت تلعبين دور الحمامة بهذه السرعة . أرجوك الا تتدخلى بينى وبين زوجتى ! » واستمر يضحك وضحكت زينب وضحكت أنا أيضا رغم شعور مفاجيء بعدم الارتياح .

فرحتى بخطبة مجدى وزينب بلا حدود . بإمكانى الآن الاطمئنان على البنت . سيحبها مجدى ويصونها ويرعاها ويشكلها كما يحلو له وسيسمح لها أن تنمو وتزدهر تماما كتلك النباتات المنزلية الخضراء البديعة التى تملأ بيته .

اضطحبت زينب الى مدام لاورا لتحريك لها ثوبا لحفل الخطوبة . قلبت فى عشرات المجلات حتى أستقر رأبى على الثوب المناسب وأخذت مدام لاورا المقاسات وقلت أنا بشراء القماش . وفى اليوم المحدد للقياس جلست على المقعد الوثير المواجه للمرابا الكبيرة فى بيت مدام لاورا أتأمل زينب فى الثوب الذى تقيسه مأخوذة وفخورة وبى شىء من وجل . هذه البنت الجميلة ابنتى . طويلة وبياض وبضة كأهل أبيها ولكن شعرها وعينيها سود مثل « أريد النحر مفتوحا أكثر من ذلك » أدارت مدام لاورا مقصها الكبير فى القماش ووسعت فتحة النحر . قلت « وقصرى الطول قليلا » ركعت الخياطة على ركبتيها وأخذت تثنى ذيل القستان بالدبابيس . سألت « هذا الطول مناسب ؟ » قمت من على المقعد وابتعدت قليلا قلت « لا ، هذا أقصر مما يجب ، أريده بين هذا الطول والطول السابق » .

كان الثوب مشدودا على جسد زينب حتى الخصر يبرز امتلاء صدرها وتحول خصرها ثم ينزل بعد ذلك واسعا وفضفاضا بكسرات سخية . قلت للخياطة : « سلمت يداك . الخياطة الماهرة تظهر جودة القماش » فضحكت للأطراء وقالت أن القالب غالب .

مقص مدام لاورا لا يعلى عليه ، وأناملها تبعد وتجيد . ولا شىء فى مظهرها يتم عن قدرتها الخاصة فهى امرأة مميزة القصر ممتلئة

الصدر والردفين تلبس ثوبا منزليا بسيطا وتلم شعرها الرمادى فى شبكة من خيوط سوداء دقيقة وتخلط العربية بالفرنسية والايطالية من يلحقها فى الشارع دون سابق معرفة يظنها بائعة يونانية فى محل للخردوات ولكنها مدام لاورا أمهر خياطة فى البلد لا يذهب اليها الا صاحبات الذوق الرفيع والجيب الممتلئ !

ساعدت مدام لاورا زينب على خلع الثوب المثبت بعشرات الدبابيس واتفقت معها على موعد القياس الثانى ثم موعد الاستلام قبل الخطبة بثلاثة أيام . « اذن سنأتى لآخذ الفستان بعد ظهر الاثنين ٥ يونية » آكدت عليها ونحن نغادر .

زينب تبكى بلا انقطاع وتكرر أن حظها سييء وأنا أهون عليها
مؤكدة أن الأمر عابر وما أن تمر هذه الايام حتى أقيم لك حفل
خطبة اكبر وافخم من الذى الفى .
كان الراديو « الزينيت » الكبير الذى ابقيناه مفتوحا يواصل
اذاعة البيانات العسكرية تعقبها المارشات وأغانى عبد الحليم حافظ
لم يعود للبيانات مرة أخرى ولا تكاد صفارات الانذار المتصلة التى
تعلم الامان تدق حتى تعلن الصفارات المتقاطعة عن غارة جوية
جديدة .

منذ أمس الاول لم يعد كمال الى البيت اتصل بى بعد ظهر
الاثنين من القصر العيني وقال انه قد يذهب مع زملاء آخرين الى
السويس وانتقل أبى وأمى للاقامة معنا . والليلة كما فى الليلتين
السابقتين كانت الساعات تمر ببطء غرب يحيط بنا ظلام داس
فاضواء البيت مظفاة وكذلك اضواء الشارع الذى توقفت فيه كل
حركة وسكنت الاصوات الا من تحذير شاب أو آخر من شباب
الدفاع المدنى يصيح : « طفى النور . . . » يتقدم الليل موحشا
وصامتا الا من صوت المدياع واضحا حين تضبط سوسن مؤثره
على اذاعة القاهرة أو صوت العرب ومليلها تعتريه الخرفشة
حين تضبطه على الاذاعة البريطانية أو محطة امرائيل فتلتصق
اذنها بالمدياع تنصت ثم تعيد ما سمعته بصوت عال على جدها لكى
يتمكن من فهم ما تقول .

أبى وأمى ينامان فى حجرة الاولاد ومعهما سعد . أما زينب
وسوسن فتنامان بجوارى ، والليلة بعد أن دخلنا الى الفراش
ونمنا استيقظت من نومي على صوت بكاء مكتوم . أضأت الصباح
الجانبى وأنا افكر أن زينب بلهاء لا تزال تبكى على تأجيل خطبتها
ولكنى وجدت زينب تغط فى نوم عميق وكانت سوسن هى التى تبكى

« ما بك ؟ » « لا شيء ! » حاولت أن أضمه إلى صدري ولكنها انكشيت بعيدا كحيوان نافر .

البيانات العسكرية تتحدث عن الانسحاب إلى خط الدفاع الثاني ولم يكن أي منا يعرف أين يقع خط الدفاع هذا ولا معناه بالنسبة لسير الحرب . ولكن كان واضحا الآن أن الوضع سيء بالنسبة لنا .

لم يعد كمال إلى البيت منذ نشوب الحرب صباح الاثنين ورغم قلقى عليه إلا أنني كنت أشد قلقا على سوسن فعيناها غائرتان اتسعنا حتى ابتلعنا ثلث وجهها تتحرك في البيت غائبة وصامتة ولم تخرج عن صمتها إلا عندما قال أبي أن عبد الناصر أضاع البلد وخربها وكان ما كان فقالت له أنه رجل خرف ومن الأفضل أن يبقى لسانه في فمه وكدت أوبخها على سوء سلوكها ولكنى لم أفعل ... البيت متعبة ، أشفق عليها .

الخميس ليلا عاد كمال فراح أبي يسأله : « أين خط الدفاع الثاني ، ما معنى قبول وقف إطلاق النار الآن ، هل انسحب الجيش المصري من كل سيناء ، هل احتلها الإسرائيليون ؟ هل هناك جرحى كثيرون ؟ ما عدد القتلى ؟ » كان أبي يسأل ولا تأتيه اجابة على أسئلته فيسأل أسئلة أخرى ثم يعود إلى الأسئلة الأولى . قال كمال بصوت عال لكي يسمعه أبي : « انتهى يا عمي ، انتهى ، خسرتنا الحرب ! » وقام وطلب منى أن اصنع له كوبا من الشاي « سأشربه في غرفتي ! »

كانت ليلة ثقيلة وطويلة قضيتها في الفراش مع كمال دون أن يغمض لنا جفن ولم يفتح أي منا فمه بكلمة كان أحدا نائم والآخر وحده هو المستيقظ . كان كمال يتقلب كثيرا في الفراش ثم استقر على جانبه الأيمن فلم أعد أرى وجهه بعدها سمعته يبكي ، يشج وينتحب بصوت مكبل ومكتوم فاجتأحتني فزرع هائل ووجدت نفسي غير قادرة على أن أفعل أي شيء ولا حتى أن أمد يدي وأربت على كتفه أو أمسك بيده . كنت خائفة إلى حد التخشب في مكاني حتى صباح الجمعة .

جمعة حزينة في البيت والشارع يتردد فيها صوت القريء فتتأكد الوحشة ، وحشة الآثم الكبيرة ، لم تدر الخادمة بالبخور المخلوط بالمستكة والجهان فهي لم تأت ولم يستحم الأولاد كالعتاد . جلس سعد وزينب وأجمين ، أما سوسن فبقيت في سريرها حتى

بعد الظهر ، كمال يدخن ويشرب القهوة ولا يكلم احدا و ابي يثرثر
بلا انقطاع و امي تحدجه بنظرات رادعة ولكنه يواصل حديثا لا يوله
احد اهتماما . ثم جاء مجدى وشربنا شايًا ثم قهوة ثم شايًا ثم
قهوة في انتظار الثامنة مساء .

في الثامنة ظهر عبد الناصر على التلفزيون قال اننا هزمنا في
المركة ، سماها نكسة ، و اعلن تنحيه عن رئاسة الجمهورية . انتهى
الخطاب ، المديع ينتحب و كمال و مجدى يحدقان امامهما ولا يقولان
شيئا . ابي يبكي فتزجره امي . اسمع طرقة الباب ، « سوسن ! »
انادى . اين ستذهب هذه المجنونة ؟ افتح الباب وانزل الى الشارع
راكضة و راءها فاراها امامي تركض في الشارع المهجور . انادى
عليها ولكنها لا تستدير . اركض حتى الحق بها و امسك بذرعاها
« هل جننت .. الى اين تذهبين ؟! » اجرها جرا في اتجاه البيت
وهي تكرر بالحاح ، برجاء ، بتوسل « ارجوك ، ارجوك يا امي
انركبيني ! » ولكنني اسحبها حتى اعود بها .

اجد زينب و سعد و مجدى و ابي و امي واقفين علي السلم .
ابي يوبخ سوسن و امي تزجره و تقول له الا يتدخل . اسحب
سوسن الى حجرتها و انا اقول : « عندما تميم ٢١ سنة افعلى
ما تشائين .. عندك ١٣ سنة تسمى كلامي . انا و لية امرك .
انا المسئولة عنك ! » طرقت الباب و رائى و اغلقته عليها بالمفتاح .
كان كمال جالسا امام التلفزيون المعلق يحديق فيه كأنه مفتوح ،
لم يحرك ساكنا . هكذا هو ... ترك ابنته تركض في الشوارع
وهو جالس بلا حراك . كنت ما زلت الهث متقطعة الانفاس ،
صدرى يعلو و يهبط من الركض والانفعال . قال ابي « ابنتك
مجنونة ! » فلم اعلق ولكنني فكرت انها فعلا مجنونة ... هل تفعل
في نفسها شيئا ؟ فانتفضت من مكاني كالملدوغة و قمت لاطمن .
فتحت الباب فوجدتها جالسة على الارض تسند ظهرها الى السرير
وتخفي وجهها بكفيها . هذه البنت مجنونة قد تؤذى نفسها ، قد
تفتح النافذة وتقفز منها ، قد تدق راسها في الحائط وتشجه ،
هرولت الى المطبخ . و ابيت بحبل غسيل و ربطت الحبل في عمود
السرير و عقدته ثم لففته حول جذعها و خصرها مرة و ثانية ثم
ثالثة . نظرت الى و كأنها انتبهت فجأة و صرخت : « -ماما ماذا
تفعلين ؟ ! » . لم اجبها و اتجهت الى باب الحجره ولكني قبل ان

اغادرها استندرت لآناكد . كانت سوسن مقيدة تماما بالحبل الى رجل السرير الخشبية الضخمة لا تستطيع ان تتحرك ... مستحيل ان تؤذى نفسها ! اغلقت الباب وذهبت .

دخلت الى المطبخ لاصنع لنفسى فنجانا من القهوة . جاء سعد وقال : « ماما ، بابا وجدى ومجدى يريدون قهوة » ثم شب على اطراف اصابعه واحاطنى بدراعيه وقبلتى فى كتفى وقال « ماما لا تبكى » فانتبهت لكونى ابكى . قبلت سعد ومسحت دموعى واكملت صنع القهوة ثم حملتها اليهم . لم اجدهم بالصالة ، كانوا بالشرفة وقال مجدى مفسرا : « يبدو ان هناك تجمهرا ، سمعنا جلبة واصواتا » .

صوت يقترب ، يعلو ويهبط ، يظهر ويختفى ، يدور ويقف كأنه آلة ضخمة او عجلات قطار او موج بحر بعيد .

- انها مظاهرة !

- وهل هذا وقت مظاهرات ؟!

- من يدري لعلها مظاهرة ضد عبد الناصر ، ثورة يعنى ! . نحدق فى العتمة ولكننا لا نرى شيئا ثم سمعنا : « تحيا مصر ... تحيا مصر » وهتف سعد وهو يشير بيده الى كتلة صغيرة بدت فى الشارع الواجه . الكتلة تكبر والاصوات تعلو . ليست مظاهرة واحدة فالاصوات تاتى من جهات متعددة . ثلاث كتل بشرية نراها الآن تندفق الى الميدان حيث التمثال البرونزى . البشر يملثون الميدان الذى لا يتسع فيفيضون فى الشوارع ويعلو صوتهم مدويا يرج البناءات العالية التى كان سكانها مثلنا واقفين فى الشرفات يشاهدون . قال أبى :

- هذا الرجل داهية ، تنحى عن الحكم ثم اطلق الناس فى الشوارع لكى يقولوا له ارجع !

قال كمال :

- اشك !

قال مجدى :

- بصرف النظر عن الحقيقة ، الشيء المؤكد انه افرقنا وهو المسئول فلينتظر اذن حتى يجد لنا مخرجا .

همست زينب فى اذن مجدى . سالتها :

- ماذا تريدين ؟

تلمثت ثم قالت :

.. كنت اطلب منه ان يرجوك ان تسامحى سوسن وتفكى
لهدها .

- لا تتدخلى فيما لا يخصك !

تحرك الكتلة لتدخل الشارع الذى لا يسمعها فتمتد مستظيلة
المدىم باتجاه شارع الجمهورية .

- الى اين سيذهبون ؟

- ربما الى ميدان عابدين او الى مجلس الامة .

- وربما لا يقصلون مكانا محددًا !

كان الميدان الآن قد عاد خاليا تماما الا من تمثال مصطفى

كامل ولكن الصوت بقى مسموعا وعاليا :

بالروح بالدم ... حانكمل المشوار .. بالروح بالدم .. نفديك

يا مصر ...

قال سعد :

- اذن سوسن كانت تريد ان تمشى فى المظاهرة ؟

قلت :

- سوسن مجنونة !

وتركتهم واقفين فى الشرفة وذهبت لاطمن عليها . أدت

المتاح فى الباب ودخلت . كانت فى مكانها جالسة على الارض مقيدة

فى رجل السرير تسند راسها الى ركبته ولا تحرك ساكنا . اغلقت

الباب وذهبت .

اقت لزینب حفل خطبة كبريا ، تماما كما وعدتها . اكتظ البيت بالمدعوین وبدت زینب فی أبهى صورة : ينطق الثوب الوردی جمالها ويتلألأ الماس علی نحرها وينزل شعرها الاسود الكثيف متموجا وسخيا علی كتفها .

أروح وأجىء ، أرحب بالضيوف وأشرف علی تقديم الشربات والحلوی المصفوفة بعناية علی صواني كبریة من الفضة وأطمئن علی سير الامور فی المطبخ حيث ثلاثة من الطباخين المهرة يعدون طعام العشاء .

ثم یلبس مجدى زینب خاتم الخطة واسواره من الماس فنصفق وتطلق الخادماة الزغارید ویتقط المصورون الصور قبلت العروسين ثم قلت : « مبروك يا كمال وعقبال سوسن وسعد » ، « مبروك يا خديجة » قالها وهو یميل علی وجنتی ويقبلني ولاحظت ان عينيه دامعتان وأن بوجهه شيء من شحوب .

ليس لدى دقيقة فراغ واحدة . لدى عمل كثير ومسئوليات كبریة . اختار لزینب موديلات الفساتين من المجلات الفرنسية والإيطالية واشترى الاقمشة وأحملها الى الخياطین وأوصى علی مجلات الاثاث من المانيا والسويد لانتقى منها ما ینفذه صانعو الاثاث فی دمیاط . كالمعتاد كمال غائب كان زینب ابنتی وحدی . يعمل طوال اليوم ويعود فی الليل مرهقا فلا يتبادل معى سوى كلمات معدودة .

كان مجدى فی زيارتنا يوم الجمعة وكنا نجلس مجتمعين فی الصالون نتناول الشای . اثبت بمجلات الاثاث لكى أعرض بعض ما اخترت علی مجدى وزینب وكمال فاذا بمجدى یقول :
- ولكن اثاث بيتی جميل ولن نشترى اثاثا أفضل منه فان

كانت زينب توافقنى نجرى تعديلات بسيطة ونحتفظ بالاثاث الحالى .. ما رأيك يا زينب ؟ .

فاجانى الكلام ووجدته لا يعقل .

— تقصد الا تجهز زينب ؟ .

— جهزى كما تريدن ولكن بالنسبة لاثاث غرف الجلوس والاكل والنوم . فلا داعى .

— وما الذى يتبقى اذن ؟ .

— اشياء كثيرة ، المطبخ ، السجاد ، الثريات .

— هذه الاشياء على العريس .

— اذن سأشترىها .

— ونحن لا نشترى شيئاً ؟!

تدخل كمال فى الحديث :

— ما رأيك يا زينب ؟ .

— لا امانع فى الاحتفاظ بالاثاث القديم ما دام مجدى يحبه .

ما يقولونه سخف ولا علاقة له بالمنطق . أعلنت بحسم :

— زينب عروسة ولا بد أن تدخل الى بيت يليق بها .

— الله يسامحك يا خديجة . هذا البيت كونه بنفسى قطعة

قطعة واعتقد انه جميل ويليق بزينب .

— وأنا اعتقد انه لا يليق بها ، او بنا !

موقف مجدى غريب والأغرب منه موقف كمال . لا ليس غريباً

موقف كمال . هكذا كان دائماً يخالفنى فيما أقول ويخذلنى فى

المواقف التى احتاج فيها مساعدته ، كيف تتزوج البنت فى بيت

اثائه قديم ؟! وماذا يقول الناس ؟! الدكتور كمال صفوت الجراح

الكبير لم يجهز ابنته ، ابنته البكر ، فرحته الاولى ! ستكون فضيحة ،

سيقولون أخذوا المهر ولم يجهزوا البنت ! فى الليل قلت رابى

لكمال . قال :

— ليست المسألة شكلية يا خديجة وهما اللذان سيميشان

فى هذا البيت . وبالنسبة شقة مجدى مفروشة بدوق جميل

ولو تذكرين اول مرة زرنانه قلت لى ان الاثاث جميل .

— لا اذكر ! وحتى لو قلت ذلك فكلامى تعليقاً على شقة عازب

ولكن شقة ابنتى اوثقها كما يحلو لى ويليق بها ... ثم ماذا

يقول الناس ؟ : أخذوا المهر ولم يقدموا شيئاً ! .

— اضربى المهر فى ثلاثة واشترى لها هدية ، لما لا تقدمى لهما

تذاكر سفر الى أوروبا لقضاء شهر العسل ؟ .
كمال لا يتفهمنى ، انهى النقاش بشكل جارح وقال لى أن اترك
الاولاد وشأنهم والا أفسد حياتهم بتسلطى . لماذا يقول هذا الكلام
وهل رآنى أفسد حياة أحد ؟ أنا أربى له اولاده وأفتح بيتى لكل
من هب ودب من زملائه وهو غائب طوال اليوم ، يقول مشغول
وعندما يكون نائما فى الفراش بجوارى يهمنى ولا يقربنى الا فى
المناسبات . فمن الذى أفسد حياة من ؟ ومجدى ؟ لماذا يتصرف
بهذا الشكل الاحمق ؟ كان سلوكه سخيفا وعناده أسخف فلماذا ؟
وهل كان رقيقا معى لكى أعطيه البنت والآن بعد أن أعطيتها له
يتعلم ويتحكم ؟!

لم نعاود الحديث فى الموضوع واعتبرت تعليقه تراجعاً من
جانب مجدى . . . سنؤث للبنت بيتاً جديداً ولائقاً ، هذا ما قررته .
يطلب مجدى أن نعد القران . قال « مرت على الخطبة ستة
شهور . صارت زينب تعرفنى وصرت أعرفها واعتقد اننا نريد الآن
الزواج مرة والى الأبد ! » وضحك . وافق كمال فكتبنا الكتاب
فى حفل عائلى صغير وعلق كمال بعد أن ذهب المدعوون وآوينا الى
حجرتنا « هكذا أفضل ! » قلت : « الآن يخرجان ويدخلان ونحن
مرتاحين لا يشغلنا انهما تأخرا أو لم يتأخرا ولا تعترض أمى على
كثرة لقاءاته بزینب . مجدى الآن زوج زينب على سنة الله
ورسوله ! »

سأقيم لزینب حفل زفافها بالاسكندرية قلت ذلك لكمال
فاستغرب وسأل « وما الحكمة ؟ » قلت « ما دمنا قررنا أن يتم
العرس فى الصيف فلنقيم فى الاسكندرية ، فى « قصر المنتزه » لم
يبد على كمال الحماس ولكنه لم يعترض قال « افعل ما بدا لك . »
سيكون فرح زينب ومجدى حديث الأهل والاصدقاء لشهور
وربما لسنوات . نستأجر قاعة الأفراح بقصر المنتزه حيث أعمدة
المرمر وثيريات الكريستال والأسقف المنقوشة بهاء الذهب . هناك
فى القصر ، حيث كان يقيم ملوك مصر تزف أنتى الى مجدى فى
ثوب بلا مثيل اشترى قماشه من فرنسا وتحببته لها مدام لاورا ،
تلبس الثوب الابيض وتضع على رأسها اكلیل الزهور والطرحة
وتزفها الراقصات على الدفوف وضوء المشاعل وتمتد الموائد فى
البهو تحمل أطيب الطعام وبعد العشاء يكون الحفل فى حديقة القصر
تحببه المغنيات والراقصات وتكون ليلة العمر بتصدرها مجدى

وزينب ويعرف الجميع ان خديجة عندما تنجز شيئاً فهو دائماً مدهش وبلا مثيل .

ولكن على زينب ان تتم امامها الاخير في المدرسة اولا وهذا شرط ايها ، ان تنتهي من امتحان الثانوية قبل الفرح . مجدى يساعدها في دروسها ، مرات ياتي عندنا ومرات يأخذها الى بيته . في الصباح تذهب الى المدرسة وفي المساء تلتقى به .

زينب هذه الايام شاحبة الوجه ، مضطربة ، لاحظت ذلك فسألته عما بها . قالت : « لا شيء » قد تكون اختلفت مع مجدى . هكذا الأزواج دائماً يسببون النكد للزوجات . لو قالت لى ، لو كان الحق معها سأويخه يجب ان يعرف ان عليه مراعاة البنت فانا لم اعطها له ليفضبها ويتسبب في شحوب وجهها !

طلبت منى زينب ان نتحدث على انفراد ، اذن قررت ان نمشي الى . دخلنا حجرة نومي واغلقت الباب .

- هل افضبك مجدى ؟

- ابدا ... ولكن ؟

- ولكن ماذا ؟

- اعتقد انى حامل !

وللحظة دارت بى الارض . استعدادها لعلى أسأت السمع او الفهم ولكنها كررت نفس الكلام : « كيف ؟ » ثم « كيف تجرؤين ؟ ! » لم اتمالك نفسى ، صفعتها ، بصقت عليها وصرخت في رجزها . كانت زينب تبكي بحرقة وعيناها في الارض . مجدى هو القلب ، هو المسئول ، وضعت فيه كل ثقتي وليس احلا للثقة . ليسى هذا وقت الانفعال لكنه وقت التصرف . اتصلت بمجدى في صمته رثلت اننى اريد ان اراه « في الحال » ، « خيرا ، هل حدث مكرره ؟ » انكذب يتصرف بهدوء يفقد الانسان عقله . جاء مجدى راجعته بالامر :

- زينب حامل !

نظر الى نظرة غريبة ...

- غير معقول !

- هل تنكر أنك عاشرتها معاشرة الأزواج !!

نظر الى نظرة غريبة ثم ابتسم :

- ولكنها مفاجأة ، فعلاً .. اسمى يا خديجة لتتعدد ورشد

الزفاف وتيجل من الشرحة فرحتين .

انه حقير ومجنون . ماذا اقول له ؟ تماكنت نفسي :
- يا مجدى لقد اسأت التصرف وخذت الامانة . لقد سمحت
لزينب بالذهاب معك الى بيتك لاني اثق فيك ولكن لم يخطر ببالى
قط ان تفعل ذلك !.

- ربما كان يجب ان تكون اكثر حرصا لكن هذا ما حدث .
ليس فى الامر مصيبة على اى حال لان زينب زوجتى على سنة الله
ورسوله والحمل فى ايامه الاولى . لنحدد موعد الزواج .

- بهذه البساطة !!
- نعم بهذه البساطة ، لانه يا خديجة ما دام لك كل هذه
المحاذير على علاقتنا فما كان يجب ان تسمحى لنا بالانفرد فى
بيت وحدنا لساعات طويلة .

- سمحت لاني كنت واثقة انكم لستم حيوانات .
- لسنا حيوانات يا خديجة ولكننا بشر !
قالها بحدّة وكان وجهه شاحبا . صرخت فيه وصرخ فى .
- لا تزيدنيها . يا خديجة اتصرفى بحكمة ، حدى موعدا
للزواج ، فلا تكون هناك مشكلة والا ...

- والا ماذا !!
- والا آخذ زينب ، وهى زوجتى بالشرع والقانون !.
- هكذا !
- هكذا !.

قالها وتركنى وسمعت باب البيت يترق .
مجدى خانى ، تصورته افضل شاب على وجه الارض .
اعطيته ابنتى فخان . الامانة وهاهو الان يتصرف بصفاقة منقطعة
النظير فماذا حدث ؟ هل كان سيئا طوال الوقت وكانت على عيني
غشاوة ام انه تغير ؟ هل كان يدعى الخلق الكريم حتى ياخذ البنت
وحين ظفر بها ظهر على حقيقته ؟ هل فعل ما فعل لان الشيطان
شاطر ام لانه هو نفسه شيطان لا يؤمن له جانب ؟ هل يريد ان
يفضحنا وسط الناس ، هل يكرهنا وبضمر لنا شرا ؟ ربما فعل
هذا كله لكى يضعنا امام الامر الواقع ونزوجه البنت بالطريقة التى
يريدها بنفس اثاث بيته . وماذا عن حفل الزفاف فى قصر المنتزه
على شاطيء الاسكندرية ؟ ماذا عن الاثاث المصنوع فى دمياط صورة
طبق الاصل من الاثاث السويدى فى المجلات ؟ والثوب الذى تخيطه
مدام لاورا ؟ كلها ضاعت كما ضاعت ثقتى فى مجدى ، مجدى

والى كسعد يتصرف هكذا ، هذا كثير ، كثير جدا . كنت ابكى
واراد « لماذا يارب لم ترفع عن عيني الفسادة فارى مجدى على
« منه قبل ان ازوج له البنت ؟! »

انتظرت عودة كمال . قلت وانا اجلس بجواره :

- مجدى كان هنا اليوم وتخاقت معه .
رفع الى عينيه متسائلا :

- اتضح انه نام مع البنت .

فتب حاجبيه مستاء !

- ومن قال ذلك ؟ .

- زينب

- كيف واين ومتى ؟!

قلت متلعثمة :

- فى بيته .

- وهل تذهب زينب الى بيته ؟ .

- نعم

- دون علمك طبعا ؟

- لا بعلمى ، احيانا اوصلها وحيانا ياتى هو لآخذها .

- اية حماقة ، اية حماقة !

كان كمال يضرب كفا بكف وكان وجهه احمر من شدة الغضب

لم اخذ يوبخنى ويقول ان ما حدث طبيعى ما دمت سمحت لهما

ان يكونا معا فترات طويلة بالشقة بمفردهما .

قلت باحتجاج مزوج بالقرف :

- ولكنى لم اكن اظن انهما كالحيوانات .

- كان يجب ان تفكرى انهما بشر !

فريب ، كمال يحلمنى انا المسئولية ويتحدث كأنه منحاز

لمجدى ولكنه غاضب يكظم غيظه . لم اجرؤ ان اقول له ان البنت

حامل لم يبادلنى حرقا بعد ذلك . دخل السرير وادار لى ظهره

ونام اما انا فلم اتم طوال الليل . فى الصباح قال لى :

- تصرفى ، اتفقى مع مجدى على الاستعدادات الضرورية لحفل

الزفاف .. لا اريد ان اراه الآن ، انه زوج ابنتى ولا اريد ان ابدأ

ملاقتنا باهاتته .

غضبى من مجدى وزينب بلا حدود ولكن ليس لدى وقت

للتفكير فى مشاعرى فعلى القيام بعشرات الاشياء استعدادا للعرس

الذى حددت موعده بعد أسبوعين . على أن اشترى وأوصى وأتفق وأعد . لا أتحدث مع مجدى الا فى التفاصيل العملية المطلوبة منه أتحدث معه وأنا أحتفظ بالمسافة التى خلقها بتصرفه ، مسافة عدم الثقة بعد الطعنة من الخلف . وزينب أيضا أعاملها بجفاء ، لا أبتسم فى وجهها ، ولكنى أتابع حالتها الصحية وأقدم لها النصيح والتوجيهات حتى لا تسقط فى حملها فتصبح الفضيحة فضيحتين! قبل الزفاف بيومين طلب مجدى أن يتحدث معى :

- تفضل ، ماذا تريد ؟ .

- أفضل أن نذهب الى مكان هادىء خارج البيت .

- أخذنى بسيارته الى مقهى أنيق بأحد الفنادق الكبيرة .
قال :

- يا خديجة ان كنت اسأت اليك فانا آسف لم يخطر ببالي أبدا ان أتسبب يوما فى ابلامك .

- ما حدث حدث والأسف لا ينفع .

- اسمعنى للنهاية . لقد تمنيت طول عمري ان ارتبط بكم . عندما كنت طفلا كنت أكاد لا أغادر بيتكم وكانت جدتى تشتكى لابى كلما كتبت له رسالة وتقول ابنك يقيم فى بيت الجيران . كنت طفلا وحيدا يعيش فى بيت جدته الوحيدة وكنت أهرب من وحشة بيتنا اليكم لنلعب ونضحك ونتخايق . وعندما وجدتك فرحت كانى وجدت أهلى وبارتباطى بزینب صرت فعلا كما تمنيت دائما واحدا منكم ... وتعرفين اننى أحبك ، وأحب احمد أخيك وأحب سعد وسوسن وأحب زينب ، أحبها الآن مرتين ، مرة لانها زوجتى ومرة لانك أمها .

يا خديجة أنا فرح بزینب وفرح بالطفل فى بطنها . ربما أخطأت ولكن ما حدث حدث جبا . وها نحن نتداركه وبعد أيام نتزوج أنا وزینب فلنسقط المرارة ونهى المشكلة ولنقل صافى يالبن ونفرح بالفرح .

ومد لى مجدى يده عبر المائدة لكى يمسك بيدي ولكنى سحبت يدي قبل أن يلمسها .

اقمنا الفرح بالشكل المناسب فى فندق كبير . زفة وراقصات ومشاعل وموائد ممتدة ومطربون وبدت زينب فى الثوب الابيض والطرحه فاتنة . هكذا شهد الجميع كما شهدوا لى : « لا أحد يصدق انك أم العروس يا خديجة » يقولون ذلك فاضحك . كنت

أم العروس الفاضية المشغولة ولكنى لم أكن فريحة ، كانت المرارة ساكنة في قلبي ومستتية .

تمر الايام يتكور بطن زينب وينتفخ . تقول أمي ان البنت ستلد ولدا لان وجهها « تدور وابيض وأصبح مثل القمر » زينب جميلة ولكن الحمل يجعلها اجمل رغم انها تجهد نفسها في الاستعداد لامتحان الثانوية العامة . تؤدي الامتحان وهي تلبس ملابس الحمل الفضفاضة وتلم شعرها في ذيل حصان خلف رأسها تقول « لا يضايقني الا الحر » .

اليوم تظهر النتيجة . أنتظر ان يتصل بي مجدى الذى ذهب للاطلاع عليها في المدرسة فيتصل بي كمال ويقول منسرحا ان زينب نجحت وحصلت على مجموع ٨٠٪ فرحت بالخبر ولكنى تساءلت لماذا اتصل مجدى بكمال ولم يتصل بي انا ؟

بعد اسبوعين اتصل بي مجدى في ساعة متأخرة من الليل وأخبرني ان زينب جاءها المخاض فأيقظت كمال وتوجهنا الى المستشفى . تظن المرأة انها تعرف ابنتها ثم تكتشف ان هناك جديدا لا تعرفه فيها . كانت المسكينة تكتم الصرخة ، تبتمها ابتلاعا . يتقلص وجهها وينضغط . اعرف شدة ما تعانيه من ألم من تشنج قبضتها على يدي واختنق بالرغبة في البكاء ولكنى لا أبكى . يأخذونها الى حجرة الولادة واجلس في الانتظار وأرى كمال ومجدى شاحبي الوجه يروحان ويحيئان في اضطراب ظاهر . الرجال اقوياء فى الظاهر وفي المواقف الصعبة يتضح مدى هشاشتهم . اصيح فيهما : « لماذا لا تجلسان وتكفان عن هذه الحركة التى توثر الاعصاب ! » .

ترتد زينب فى فراشها ممثلة رغم الانهالك وجميلة رغم شحوب وجهها . أتت الممرضة بالصغيرة فى الاقمطة البيضاء والثوب الابيض الطويل الذى اشترته لها بنفسى . انظر اليها : وجه صغير احمر ومجعده وعينان لم تفتحهما بعد وشفقتان رقيعتان وانف منفوش وشعر اسود ناعم وكثيف يكاد يغطي جبينها « انها ابنة زينب » تمتمت وانا امد يدي لأحملها . أحطتها بذراعى تماما حتى التصق جسدها الصغير بجسدى وللحظة لم اعرف ان كان ما أسمع هو دقات قلبي أم دقات قلب الصغيرة . أحسست بدفقة ما تربط جسدينا كان بشديبي حليبا يدر .

قال مجدى وهو يقف بجوار زينب ويمسك بيدها وهى راقدة فى الفراش : « سنسمى الصغيرة خديجة ! » .

أمى ماتت . كانت قوية ومتماسكة ترمى أبى المريض وتؤنس شيخوخته فخطفها الموت وتركه ينزوى فى أحد الأركان ينتحب . أنا أيضا أنتحب ولا أغفل عن تفاصيل ضرورية : « اكتبوا النعي للنشر فى الجريدة » ، « أبقوا لأحمد فى أمريكا وقولوا له أننا سنؤجل الجنازة الى الغد لعله يستطيع الوصول قبلها » ، « قولوا لزيتب لا تأتى انها نقشة يخشى عليها » ، « هاتوا سعد ، ان لم يقف لجدته فلمن يقف ؟! » أمى ممددة فى سريرها الزان العتيق بحجرة نومها وبى رغبة فى رؤيتها وتقبيل يديها ولكنى لا أجرؤ ، أبكى . الموت حداة تنقض وتخطف وتبعثر .

ظهر اليوم التسالى أخذوها وكان البيت يمج بالمعزيات ، أتى الرجال وحملوها ووقفت فى الشرفة اتابعهم وهم يضعون النعش فى عربة نقل الموتى . اغلقوا الباب وادار السائق المحرك « احمد لن يراها أبدا . سيأتى من غربته ليجد انها ذهبت ! » ساعتها لطمت وولولت حتى سقطت مغمشيا عليها .

النساء يقفن انى مؤمنة وانها ارادة ربنا وأنا امسح دموعى فى صمت وصوت القارئ يتردد فى البيت . نساء فى الحداد يأتين ونساء فى الحداد يذهبن ثم تنقضى أيام العزاء « أبى ، ستأتى للاقامة معنا » يبكى ويقول انه لا يريد ان يفادر البيت « يا أبى ، عليك أن تتصرف بالمنطق والعقل ، كيف يقيم رجل فى سنك وحده فى بيت صار خاويا؟ » يمثل لكلامى وهو يبكى . تطلق البيت . اتكىء على ذراع سعد وتمسك سوسن بذراع جدها ويضع السائق الحقائق فى الصندوق الخلفى للسيارة ونفادر .

خديجة الصغيرة نعمة انعم الله على بها ، لولاها لكانت ابامى قاتمة لا تطاق . طقوس الحداد ، الملابس السوداء ، وفكرة الموت كسرب من الغربان يحوم وينعق . وابى المسكين يظنى على ابامى الكئيبة كآبة . سقط فى بشر فاستكان واستسلم وانزوى فى القاع لا يريد أن يظلم منه ليقتضى فى الحياة حاجات الحياة ، أطعمه بنفسى وأحميه وأغير له ملابسه وهو يتشثب بى كطفل اصابه الفزع . احمد وصل بعد أربعة أيام من وفاة أمى وقادد بعد أسبوع من وصوله ساعتها لازم أبى الفراش اباما يرقض تناول أى طعام

حتى اضطر كمال لتغذيته بزجاجة جلوكوز معلقة الى جواره موصولة بأنبوبة رفيعة تنتهي بآبرة مرشوقة في أحد أوردته . والآن وقد تحسنت حالته وأصبح بمقدوره مغادرة فراشه ينادي على بلا انقطاع يحببه سعد او سوسن « نعم يا جدى ، هل تريد شيئا ؟ » « اريد خديجة ! » وقد يكون له طلب أو لا يكون ولكنه يريد خديجة ولا يطمئن الا وأنا جالسة بالقرب منه . وعندما أخرج يصبح ، همه الشاغل هو السؤال عنى ، أين ذهبت ؟ متى تعود ؟ وهل قالت انها ستأخر . لماذا تأخرت ؟ تضح به سوسن ، أما سعد فيسأره ويصبر عليه . كان سعد طفلا هادئا ولطيفا وكبر وصار صعبا هادئا لطيفا اللطف مما ينبغى ، الاولاد في سنه يلعبون الكرة في النوادي ويلعبون الى السينما وتشغلهم المصارعة والفامرات وقد يبدأ انشغالهم بالبنات وهو لا يشغله الا الرسم وأنا اقول له أن عليه أن يهتم بدراسته وليس بالرسم لأنه سيكون طبيبا فيجب : « حاضر ياماما » هذا الولد لا يخذلنى أبدا ، مهذب ومطواع ليته يطبع أخته بشيء من وداعته . هذه الهوجاء صاخبة وعنيدة ولا تترك أمرا يمر بهدوء . تناقش وتختلف وتحتج وتعرض دائما بحدة . لو كان سعد كسوسن وسوسن كسعد لبدت الامور اقرب الى المنطق ولكن لا منطق في شيء . وهل كان منطقيًا ان تتدهور علاقتى بمجدى حين ارتبط به برباط الدم فازوجه ابنتى وأصبح جدة ابنته . لم يعد كما كان ، لا يأتى لاستمع اليه ويستمع الى ، لا يسر لى بشيء ، لم يعد صديقا بل مجرد نسيب . خدوم ومهذب صحيح ولكنه بعيد ، أبعد بكثير مما كان قبل أن يتزوج البنت فهل كان يقترب منا لياخذها أم انه حين تزوج وجد من ينصت له فلم يعد بحاجة الى ؟ هل ابتعد لاننى قسوت عليه عندما عرفت بحمل زينب ؟ قد أكون أغضبته ولكنه جرحنى وأنا أكثر الناس ثقة فيه ثم جاء يريد أن يفسود الميآه الى مجاريها فكيف ؟! لا منطق فى شيء والايام لاتأتى الا بخيبة الأمل وأحمد أخى الذى انتظرت عودته سنوات جاء وذهب تاركا لى احساسا بالخذلان وعدم الفهم . وجدت أمامى رجلا مترهلا فى منتصف العمر هو أحمد وليس أحمد يؤكد ذلك لسانه المختلف وأسلوبه فى التفكير والسلوك وحتى ملابسه العجيبة - رابطة عنق لا تناسب القميص وقميص لا يوافق السترة وخذاء مطاط يركب به الطائرة ليسافر من قارة الى قارة وبدأ لى انه قادم ليس من أمريكا بل من الأذغال ؟ ورغم ذلك تعلق الاولاد به قال سعد انه لطيف وأعجبت به سوسن اعجابا شديدا ولم اعلق لانه من غير اللائق ان أنتقد

أخى امامهم ولكنى فكرت أن الطيور على أشكالها تقع وأن أخى مجنون
وابنتى مجنونة وربنا يستر . جاء أحمد وذهب وبكيت عند استقباله
فى المطار وبكيت أكثر عند وداعه .

البيت كئيب ولولا خديجة الصغيرة لأصابنى انهيار عصبى .
أذهب كل صباح الى زينب : « أى صباح جميل هذا الذى يصطحب
الانسان فيه بهذا الوجه ! » جميلة وأميرة وتملأ القلب بالبشر . أحملها
من مهدها وأخلع عنها ملابسها وأحممها وأرش جسمها بيودرة التلك
الناعمة ثم ألقها بالأقمطة والبسها ثوبا أبيض جميلا وأعطيها
لأمها لترضعها . خديجة بلسم وهدية أتأملها فتملأ قلبى بالرضا
وأنسى كل الأوجاع . هدية صغيرة ، تكبر وتجلس ، تحبو وتنبت
لها أسنان . أحب أن أحملها بين يدي وأحب أن أشتري لها
ملابس ولعبا وحليا ، أسورة صغيرة من الذهب ، حلقا من اللؤلؤ ،
مشبكا يحمل آية الكرسي محفورة على رقيقة من البلاتين . أحب أن
أشتري لخديجة لاني أحبها ولانها أميرة يجب أن تلبس ما يليق .

حصلت سوسن على الشهادة الثانوية ، تريد أن تلتحق بالجامعة
لأنها لا أريد . أخشى أن تفلت البنت من يدي نهائيا . عمتي كريمة
بالميتها لأصفر أبنائها وهو شاب ممتاز ويعمل مهندسا ولا يكسر
البت سوى بسبع سنين . قلت لكمال فقال : « مادامت البنت
تريد اكمال دراستها فدعها » قلت : « ولكنها عنيدة ومتهورة وقد
تندم في المستقبل ، من الأفضل أن نزوجها قال : « اتركها
وشأنها » .

يوم من أيام شهر سبتمبر مخنوق وقائظ عادت سوسن الى
البيت مندفة كالعاصفة وانهاالت على تقبيلها وأخبرتني انها قرأت
اسمها في كشوف المقبولين « وستكون ابنتك محامية قد الدنيا
لا تتراجع في قضية خاسرة ! » قلت لها انه من الأجدى أن تدخل
استنحم لان رائحتها لا تطاق . كان وجهها وشعرها وملابسها
مبللين بالعرق .

كانت سوسن تحسب الايام في انتظار بداية العام الدراسي عندما
مات جمال عبد الناصر . اتصل بنا مجدى بالتليفون وأبلغنا بالخبر .
فتحنا التليفزيون ، كان القارئ يتلو آيات من القرآن ، فتحنا الراديو
فوجدنا نفس الشيء ثم اذاعوا النبا . لا احب عبدالناصر ولا أنا
معجبة به ، أبى بكره ويقول انه خرب البلد والدكتور سالم يقول
انه أطلق الغوغاء علينا وأثار الحقد في نفوسهم وقال لهم لكم حقوق
ونسى أن يقول أن عليهم واجبات ، كمال لا بكره بنفس القدر
ولكنه لا يثق فيه .

قلت للخبر لأبى قال :

- ماذا تقولين ؟

فكرت بصوت اعلى :

- عبد الناصر مات

- من ؟

- عبد الناصر !

- قتلوه ؟

- لا ، مات .

- وهل أرسلوا في طلب احمد قواد ؟

— احمد فؤاد ؟

— ولى العهد

فضحكت ولكنى كنت مرتبكة وربما حتى خائفة فما الذى يحدث
لان ؟

— سوسن ، ماهذا ؟!

صرخت فيها وانا اكاد لا اصدق عينى . هذه البنت مجنونة
وستحطنا معها استبدلت بثوبها ثوبا اسود . طلبت منها ان تخلع
هذه الملابس « فورا » ... لم تستجب .

يتوافد على مصر رؤساء الدول المختلفة بعضهم يتحدث فى
التليفزيون ينمى عبد الناصر ، نشاهدهم كما نشاهد جنازته فى
التليفزيون ولا نستطيع ان نمنع دموعنا ونحن نرى الشوارع تفيض
بالناس يتخاطفون النعش يطير فوق رؤسهم يخفى منهم ويتوارى
ثم يظهر فوق اعناقهم . انا وزينب نبكى وسعد يقالب دموعه اما
سوسن فلا افهمها تجلس بملابس الحداد صامته جامدة الوجه كأنها
تحولت الى حجر .

أصرت سوسن ان تلبس اسود اربعين يوما . حاولت ان ائنيها
ولم افلح فقررت انها مجنونة وتركتها كما نصح ابوها كلما اطلب
منه ان يعاوننى فى تربيتها ، كلما شكوتها له قال « اتركها » ولو
أفلتت البنت نهائيا ؟ يكون هو المسئول !

تقضى الأيام والشهور مقفرة وكئيبة . أبى يجلس امام
التليفزيون يهذى بذكرىات مكررة . كمال غائب فى عمله وسوسن
وسعد منهمكان فى دروسهما اكاد لا اراهما . لولا خديجة الصغيرة
لأغرقتنى الوحشة . انها وردة وهبها الله لى . تسمينى ماما .
وأحب ان تقيم معى . مجدى وزينب يتركانها معى اياما ثم يأتيان
ويأخذانها ... يملؤنى الضيق وما أن يصبح الصبح حتى اذهب
لرؤيتها . خديجة وردة ، وردتى .

ذهبت سوسن لتاتى بنتيجة الامتحانات وعادت . عندما دقت
الباب ودخلت عرفت ان شيئا ما ليس على مايرام .

— ماذا حدث ؟

— رسبت فى ثلاث مواد .

— كيف ؟

— لا ادرى .

— لعل فى النتيجة خطأ

— هل يذهب أبوك للعميد لكي يراجعوا أوراقك ؟

— لا .

— ألم تحضري هذه الامتحانات ؟

— حضرتها

— اذن كيف رسبت ؟

— ربما لم استذكر بالشكل الكافي .

لم أصدقها فهي تجلس على مكتبها بالساعات وهي ذكية ولم
ترسب في حياتها . في الليل قلت لأبيها فتحدث معها في حجرتهما
لم قال لي : « يبدو أن البنت كانت تقضى معظم وقتها في قراءة كتب
لا علاقة لها بالدراسة » . « كيف ، ماذا كانت تقرأ اذن ؟ ! »
قال : « لم أسألها » .

كان أول ما فعلته في الصباح هو سؤالها :

— ماذا كنت تقرأين ؟

— الآن ؟ .

— ماذا كنت تقرأين بدلا من الكتب المقررة ؟

— كتب !

— أعرف انها كتب ، في أي موضوع ؟

— في التاريخ ، في الاقتصاد ، في السياسة .

— اسمعي ياسوسن لو كنت أعرف أنك سترسين لما ادخلتك

الجامعة . وان كانت المسألة هي قراءة كتب للتسلية فيمكنك عمل
ذلك في البيت .

— ولكن يا ماما . .

— اسمعيني جيدا . أن لم تتفوقى في دراستك ، لا أقول أن

لم تنجحي ، أقول أن لم تنجحي وبتفوق سابقك في البيت !

لا أدري ما الذى يحدث للأولاد حين يكبرون ، أنهم يخيبون
رسبت سوسن أما سعد فيقضى معظم الوقت في الرسم وعمل تلك
التمائيل الطينية الصغيرة التي حولت حجرته الى مزبلة . ادفعسه
للمذاكرة دفعا ، أقول له ستكون طبيبا والطبيب لا يبدد وقته
فيما لا طائل وراءه فيقول يا أمى دعيني أكمل ما بدأت فأتمكن
من التركيز في الدروس . فكيف أتركه واكمال ما في يده قد يستفرقه
الليل بطوله . لولا خديجة الصغيرة لانفجرت ضيقا .

بدأ العام الدراسى وأبقيت عيني مفتوحتين . أراقب سوسن
وسعد لاتأكد أنهما يدرسان . اجلستهما امامى في أول ايام الدراسة

وقلت لهما بوضوح اننى لن اسمح باى اهمال فى الدراسة « كتب خارجية ، رسم ، نماثيل ، كلها ممنوعة . عندما تنتهى السنة الدراسية افعل ما تريدان . الآن تدرسان ونقط ! » سمد يحدث فى قدميه ولا يرفع رأسه . سوسن لا يعجبها كلامى ، اعرف هذا من نظرة عينيها ولكنها لا تجرؤ على فتح فمها .

احب ان افاجيء الاولاد اثناء الدراسة لاتأكد . فتحت الباب على سوسن فوجدتها جاثية على ركبتيها منحنية على ورقة بيضاء كبيرة مسبوطة امامها على الارض . وكانت تكتب ببطء وعناية بقلم اسود .

– ماذا تفعلين ؟

– كما ترين ، اكتب

– ولماذا على هذه الورقة الكبيرة ؟

– انها مجلة حائط .

– طلبها أحد الاساتذة ؟

– لا ، ولكنها جزء من نشاط الأسرة .

– دعيني ارى

اخذت المجلة وبسطنها امامى على المكتب . كان اسم المجلة « الشعلة » وبها مقالات ورسوم كاريكاتورية . مقال بعنوان : « الجامعة المطوقة » وآخر عنوانه « قطط سمان تحكم وقران تحمل القلم » ومقالات اخرى لم اتحمل قراءتها . كان الامر صادما بما لا يحتمل . اخذت امزق المجلة صرخت سوسن : « ماما ماذا تفعلين ، هذه المجلة ليست ملكى ... ثم انها » « اخرى ! » قلت وانا اصفعها على وجهها « اخرى تماما لقد تعبت من الكلام معك ! » وعندما عاد كمال من عمله اخبرته بكل شيء ، حكيت له بالتفصيل عن المقالات التى تهاجم الحكومة والرسوم الكاريكاتورية التى تسخر من الجميع حتى مدير الجامعة ستخرون منه ، تصور ؟ ! . نادى على سوسن وراح يتحدث معها بهدوء مثير للأعصاب ، كنت اعلى غيظا ، اكاد انفجر . قال كمال :

– سوسن نحن أسرة لا علاقة لنا بالسياسة . تريدن خدمة البلد شيء جميل ونبيل ولكن مادخل السياسة فى الموضوع ؟! انك تهاجمين الحكومة ولن تجنى من وراء ذلك سوى السجن والبهذلة . وانت بنت ونحن أسرة محترمة وانا طبيب اخدم بلدى فى مجال تخصصى . تريدن ان تخدمى بلدك اهتمى بدروسك وكونى محامية

ماهرة وليس هناك خدمة افضل ولا اجل وبالمناسبة لو لم ترسبى
العام الماضى لو فرت على نفسك نصف هذا الكلام .
طاطات رأسها وقالت :

— لقد أخطأت برسوبى وأعدك الا يتكرر الخطأ .

— أريدك ان تعدينى الا تتدخلى فى المسائل السياسية .

— ولكن ...

— أريد وعداً !

تدخلت انا فى الحديث :

— ان لم تعدى بابا الآن فلن اسمح لك بالذهاب الى الجامعة

— ولكن ياماما

قاطعتها :

— أختارى .

— ولكن

— أختارى ولا مجال للنقاش .

— أريد ان اذهب الى الجامعة

قلت :

— اذن هذا وعد منك بالا تكون لك علاقة لا بالسياسة ولا بمن

يعملون بها من طلاب .

— ولكن هذا ظلم ... ليس هكذا تفرض على المرء الاختيارات !

قالتها فى حدة وهى تغادر الى حجرتها فقلت لكمال ان سوسن

مجنونة ولن توصل الامور لبر امان . سوسن تقيض سعد هو لطيف

ويسمع الكلام اما هى فمتمردة تحتاج لجاما لكى لا تفلت .

أثناء السنة الدراسية اكاد لا اغادر البيت لأشرف على دراسة

سوسن وسعد وحتى فى الاجازة لا اخرج الا قليلا لان ابى صار

متعلقا بى كطفل صغير . ان دخلت دورة المياه يسأل اين ذهبت ان

تحدثت فى التليفون يحلو له ان يطلب منى قضاء حاجاته . حتى

خديجة لا تستطيع الذهاب لرؤيتها بل تحضرها لى زينب او مجدى .

زينب حامل للمرة الثانية . أريد ان تلد ولدا ومجدى ايضا يريد

ذلك وهى تضحك وتقول : « ما يأتى به ربنا خير » زينب طيبة فلماذا

جاءت سوسن مختلفة الى هذا الحد ؟

سعد عاد متهللا بخير نجاحه فى الثانوية العامة وعرفت قبيل

ان ينطق كان وجهه مشرقا وعيناه ضاحكتين :

قلت وانا احتضنه :

— مبروك يا سعد :

- الله يبارك فيك يا ماما

- والمجموع ؟

- ٧٢ ٪

وجمت ، كيف يدخل كلية الطب بهذا المجموع ؟!

- ولكنك قلت لى انك اجبت على الامتحانات بشكل جيد

- نعم

- كيف اذن حصلت على هذا المجموع ؟

- ولكن ٧٢ ٪ مجموع جيد يا أمى وسيتمكنى من دخول

الجامعة .

- لن يمكنك من دخول كلية الطب .

تلعثم سعد واحمر وجهه . قال :

- اسمعى يا أمى دعينى أقول لك الحقيقة بلا لف ولا دوران :

لا أرغب فى دخول كلية الطب .

ماذا يريد هذا الولد ، لا أفهم ، هل يمزح معى ، هل يلعب

بى .

- لا تقل هذا الكلام يا سعد ، اعرف انك اجتهدت ولم تحصل

على المجموع المناسب ولكن بإمكانك أن تعيد السنة وتدخل كلية

الطب .

- لن أعيد السنة لسبب بسيط هو أن مجموعى يسمح لى

بدخول كلية الفنون الجميلة وهى ما أريده .

الولد يقول هذا الكلام لانه لا يريد إعادة السنة ولكنها لحظنة

يأس عابرة .

- اسمع يا سعد سنة واحدة اضافية ليس لها قيمة بالمقارنة

لمستقبلك كله . . . ستكون طبيبا ، أعد السنة وكن طبيبا !

- ولكنى لا أريد أن أكون طبيبا .

قالها بحدة وهو يذب بقدمه على الأرض ، ساعتها انفجرت

باكية . الاولاد يريدون القضاء على ، أنهم ناكرون للمعروف ، كل

هذا الجهد وهم لا يفكرون الا فى أنفسهم . حاول سعد أن يطيب

خاطرى ولكنى دفعت به بعيدا وقلت له انه ولد عاق وجاحد

« اتركونى وحدى ، لا أريد منكم شيئا » دخلت حجرتى وصفتت

الباب وبقيت ابكى حتى عاد كمال .

- هل رسب سعد ؟

- حصل على ٧٢ ٪

- هل صدمته النتيجة ؟

— لم تصدمه ، صدمنى كلامه فهو يقول انه يريد دخول كلية
الفنون الجميلة .

ذهب كمال ليرى سعد ثم عاد وقال :

— اغسلى وجهك وتعالى لتتناول الغداء .

— هل تحدثت معه ؟

— تحدثت

— وماذا قال ؟

— قال انه يريد دخول كلية الفنون

— وماذا قلت ؟

— لم أقل شيئاً

فواصلت البكاء وقلت اننى لست جائعة .

بقيت أبكى اليوم بطوله وفى الليل أعطانى كمال مهدئاً فنمت وفى

اليوم التالى اعتكفت فى حجرتى . لثلاثة أيام لم أبادل سعد حرفاً

كنت أفكر انه خذلنى وهو الذى عشت أعول عليه وابنى الآمال فما

الذى يبقى لى . زينب مشغولة بزوجها وسوسن مجنونة لا يمكن

الاعتماد عليها وها هو سعد يخذلنى ، أحمل والد وأبى وأكبر

ولا أفعل سوى الاهتمام بأمرهم ، كل الساعات وكل الأيام وكل

السنين من أجلهم ثم يخذلون ، أبكى .

سعد يدق الباب ويدخل . أقول له ان يذهب لانى لا أرغب

فى رؤيته ولكنه يقترب منى والدموع تبلل عينيه : « لا تفضسى

يا أمى ، سأفعل ما يرضيك . سأعيد السنة » .

قال مجدى :

- قبل أيام عرض على السفر الى المانيا فى منحة تدريبية لمدة سنة .

- وهل وافقت ؟

- وافقت

- لا تقلق على زينب وخديجة . سافر انت بالسلامة وهما تنتقلان للاقامة معى .

- ولكنى سأخذهما معى

- كيف ؟

- هذا ما قررته !

امره غريب ! قبل ان بتزوج كان يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة والان يقول هذا ما قررته . هكذا ببساطة وكان الامر لا يتعلق بى انا ايضا ، ان ياخذ ابنتى وحفيدتى !!

- ولكن زينب حامل ومن الافضل ان تكون فى رعايتى اثناء الولادة وبعدها .

ضحك :

- لا تقلقى يا خديجة يوجد فى المانيا اطباء ومستشفيات ايضا .

نظرت لزينب لعلها تقول شيئا ولكنها لم تقل . من الواضح انها تريد مصاحبتى .

- هذا شانكما ، سافرا ان اردتما ولكن اتركنا لى خديجة . ضحك مجدى ثانية :

- هذا هو المستحيل بعينه . لا انا ولا زينب يمكننا الاستفتاء عنها .

وانا ؟ هذا ما لا يفكران فيه . ركبى القم ولم اقل شيئا . مجدى قلبه اسود ، انه يكرهنى ويريد الانتقام منى . اخذ منى زينب والان ياخذ خديجة . لم اتم طوال الليل وفى الصباح سألنى كمال ان كنت مريضة . قال « وجهك اصفر » . نظرت فى المرآة ، كان كلامه صحيحا .

قلت لنفسي هما لا يهتمان بي فلماذا اهتم انا ! ساواجه
القسوة بالقسوة . كررت ذلك لنفسي عشرات المرات ولكنني عندما
ودعتهم في المطار بكيت وعندما عدت الى البيت بكيت اكثر . ستلد
زينب في القرية فمن يقف بجوارها ساعة الألم ؟ من يمسك بيدها
ساعة تقصم الطلقة ظهرها ؟ وخديجة هل تنساني ؟ مجدى قلبه
أسود لا ينسى أبدا اننى أسأت اليه يوما . . . ولكنى لم أسئ ، هو
الذى أساء ويسئ !

نقلنا أبى الى المستشفى ، انه يحتضر ، أعرف ذلك من حالته
وعيون الأطباء . دخل في غيبوبة ولم يعد يتعرف على أحد ثم مات ،
هذه أسوأ سنة مرت على في حياتي . ليس صحيحا أن أبى كان
يزيد من كآبة البيت . غاب فأصبح البيت أكثر كآبة . لا أجد
ما أفعله بنفسى . كمال غائب طوال اليوم وسوسن وسعد يقدمان
امتحانات آخر العام كل يستذكر دروسه في حجرته خلف باب
مغلق . يمر اليوم بطيئا وموحشا وأنا ادخن بلا انقطاع وأسرف
في الأكل بشكل استفربه وفي الليل انام بشكل متقطع وتدهمنى
الكوابيس . النهار كئيب ولا يمر والليل مفزع وأنا أختنق .
استيقظت من نومى يلفنى شعور ناعم ودافئ . . ماذا حدث ؟
شئ ناعم كملمس غطاء صوفى في صباح يوم شتائى أو كجسد خديجة
الصغيرة بعد ولادتها . . . انه طفل نائم بين ذراعى ، هذا هو
ما رأيت .

كنت أحمل طفلا صغيرا له وجه وردى مدور وشعر أسود
كثيف . وجه الوليد يلاصق ثديى أشعر بأنفاسه الدافئة وفمه
المستدير يخفى حلمة الثدي السوداء وأشعر بالحليب يفيض .
لفنى الحلم طول النهار وانتظرت عودة كمال كى أحكى له وعندما
عاد قلت « لقد رأيت حلما جميلا الليلة » قال : « خيرا ؟ » فحكيت .
ضحك وقال : « زينب حامل وعمما قريب تحملين بين يديك ابنتها »
قلت : « ولكنها رؤيا ! » فلم يستوقفه كلامى . ولكنها رؤيا كررت
لنفسى ولو تركت نفسى بلا موانع أحمل وبأتينى النطف الذى حلمت
به . شغلنى الأمر لايام ثم حدثت كمال فاستغرب ، ثم استنكر
ورفض بشكل قاطع أن ننجب طفلا فجرحنى وأفسد قرحى .
الايام تمر بطيئة وبلا معنى لا أجد ما أفعله أو ما يشير الاهتمام ،
استيقظ من نومى متأخرة في الغالب ، أشرب الشاي ولا أفطر في
محاولة لانقاص وزنى الذى زاد في الشهور الاخيرة بشكل ملحوظ ،

أذهب الى مصفف الشعر مرتين في الاسبوع ، و احيانا اذهب الى النادي حيث التقى ببعض المعارف استمع الى ثرثرتهن بقدر قليل من الاهتمام .

على مائدة الغداء في يوم جمعة قال سعد انه يريد ان يسافر الى اوربا في الاجازة الصيفية وكان يوجه كلامه الى ابيه . قال ابيه : « سافر وخذ معك امك واختك واذهبوا الى زينب في المانيا لتطمئنا عليها وعلى خديجة الصغيرة وكريم » ، وكانت زينب قد وضعت قبل ايام وليدا اسمته كريما . تلثم سعد واحمر وجهه ثم قال وهو ينظر الى الصحن الذي امامه : « آخذ سوسن وماما الى زينب في المانيا واتركهما هناك وأواصل رحلتي ، أريد ان اذهب الى ايطاليا وفرنسا لمشاهدة الآثار الفنية » سعد يريد السفر وحده ، سأسمح له بالسفر سيصبح طبيبا ولا بد ان يسافر ويعرف ويجرب فيهر الآخرين بمعارفه ومشاهداته ، قلت : « اجتهد في دروسك يا سعد وما ان تنتهي الامتحانات حتى تسافر » قالت سوسن : « وانا ؟ » قلت : « انا وانت نساfer معا في فرصة اخرى » سوسن مجنونة وسعد لا يستطيع لجمها والسيطرة عليها ، لا بد ان اكون معها .

بعد الامتحانات سافر سعد ، تائبني منه بطاقات بريدية « ماما انا بخير . وصلت اليوم الى روما ولا ادرى متى اغادرها . سلامي الى بابا وسوسن . قبلاتي » . كلمات خاطفة برقية يكتبها لي على عجل ، ولكنه يكتب لسوسن رسائل طويلة ، ويحملها ساعي البريد فأعرف من الخط المنمنم الجميل على الظرف انها منه « ماذا يقول سعد يا سوسن ! » . تهز كتفيها : « يقول انه مبسوط ! » ولا تزيد .

اليوم وصلتني من سعد رسالة قلت لنفسي قبل ان اقراها ظلمت الواد ، قلت لا يهتم بأمرى ولا يعنيه حتى ان يحكى لي اخباره ببعض التفصيل وها هو يكتب لي رسالة . بدأت اقرا : ماما الحبيبة ...

اكتب لك من باريس التي وصلتها منذ اسبوع . فكرت طويلا قبل ان اقول لك ما سأقوله ، فكرت ان اطلب من سوسن ان تحدثك في الموضوع ثم عدلت . سأحاول ان اكون مباشرا وشجاعا في طرح الامر وحاولي ان تتحلى بالصبر وأن تفهميني . قبلت ان اعيد السنة فقط لكي ترضى عني ولكي لا تقولي لم

بدخل سعد كلية الطب لانه لم ينجح في الحصول على درجات
 يؤهله لذلك . فكرت في ذلك كله ، وفكرت فيه كثيرا وطويلا .
 اعدت السنة رغم عدم رغبتى في اعادتها . اعدتها من اجلك ، فقط
 من اجلك . وبعد ايام ستظهر النتيجة والارجح اننى سأحصل على
 المجموع الذى يؤهلنى لدخول كلية الطب - وقد لا أحصل عليه -
 ولكنى يا ماما في الحالتين لن أدخل كلية الطب ، هذا ما قررت
 فلست مهتما ولا راغبا في ان اكون طبيبا . اريد ان ادرس الرسم
 والتصوير لانى ارجب في ذلك فعلا واجبه وأرى فيه مستقبلى
 وامكانيات نجاحي . لو يقبل أبى الانفاق على دراستى هنا اكون
 سعيدا وممتنا بلا حدود وان لم يقبل اعود الى القاهرة لالتحق
 بكلية الفنون وأنى للدراسة هنا في المستقبل عندما تتيسر الامكانية .
 لا تغضبى يا ماما ، لا تقولى سعد ولد عاق ، فكرى فقط أنك
 تريدن لى دراسة ما لا اهتم به واننى اريد دراسة ما احبه ، ربما
 لو فكرت في ذلك تغيرين رايك .
 . احبك واحترمك وأفتقدك وأرسل لك ولبابا وسوسن سلامى
 وقبلالى ...

سعد

اعدت قراءة الرسالة وأنا اضفط على أسناني غيظا . اذن
 عاد السنة ليرضىنى ! انه طفل ولا بد من معاملته كالاطفال . وضعت
 في حقيبتي رزمة من الاوراق المالية وجواز سفرى ونزلت الى
 شركة الطيران الفرنسية واشترت تذكرة طائرة ذهابا وعودة
 واستفرت عن مكان القنصلية الفرنسية واتجهت اليها للحصول
 على تأشيرة دخول الى فرنسا .

قلت للموظف : « اريد تأشيرة لأسبوع واحد فقط ! »
 صباح اليوم التالى ودعنى كمال في المطار ونصحنى بمشاهدة
 معالم باريس والاستمتاع بوقتي فيها واستفريت كلاه . وهدهده
 فهل أنا ذاهبة لقضاء اجازة ؟ أنا في طريقى لانقاذ الولد . يريد ان
 يكون فنانا .. يافرحه قلبى بالفن والفنانين ! لقد فقد الولد عقله .
 كانت رسالة سعد في حقيبتي تحمل عنوانه وأنا في مقعدى انتظر
 ان تهبط بى الطائرة في مطار أورلى . ساستقل سيارة اجرة من
 المطار الى العنوان فأجد سعد وأعيده معى الى القاهرة ، في نفس
 اليوم ان امكن !
 هبطت الطائرة وختم لى الموظف الفرنسى الجواز . استلمت

حقيقتي وغادرت المطار وركبت سيارة أجرة وأشرت للسائق بالعنوان المكتوب على الظرف . الطريق من المطار الى المدينة طويل كأنه بلا نهاية وبعد الحركة المناسبة في الطريق السريع دخلنا الى قلب المدينة حيث الزحام والمرور البطيء . توقفنا مرات عديدة امام الشارات الضوئية الحمراء وأخيرا أنزلني السائق في شارع مزدحم بالمحلات التجارية واكشاك الجرائد والمارة وأشار بيده في اتجاه أحد الأزقة ففهمت ان العنوان هناك . فقد سعد عقله يقول لا أريد دخول كلية الطب ويسكن في باريس ، مدينة الحضارة والنور ، في حي كحي الموسكى ! البضائع تحتل الارصفة تكاد لا تترك مكانا للمارة ، أحذية ، كتب ، جرائد ، ملابس ، صور . دخلت الزقاق الذي أشار اليه السائق كان مبلطا بحجارة مستطيلة صغيرة الحجم وعلى الجانبين مطاعم صغيرة تعرض في واجهاتها الزجاجية محاشي وأسماكا ومأكولات بحرية . سألت أحد المارة عن العنوان فأشار الى عطفة الى اليمين دخلتها فوجدت رقم الفندق . فندق؟! انه خن دجاج وليس فندقا : مدخل معتم صغير به عارضة خشبية تقف خلفها امرأة بدينة بيضاء شعرها الاسود المجدد مفروق من المنتصف وعيناها سوداوان . سألت عن سعد فقالت انه غير موجود « متى يعود ؟ » « لا أعرف » وعندما قلت انى أمه ابتسمت المرأة ابتسامة عريضة فباتت سنة ذهبية في فمها وقالت وهي تمد يدها للسلام على أنها جزائرية وان اسمها رشيدة وكانت تتحدث فرنسية مطعمه بكلمات عربية . خرجت من وراء الحاجز الخشبي وسلمت على مرة أخرى وقالت ان سعدا ولد لطيف وانه لا يتأخر في الليل « ربما يعود بعد ساعة أو ساعتين » .

أجلستني رشيدة فيما اسمته « صالونا » والذي لم يكن سوى ثلاثة مقاعد قديمة اهترا قماشها وبلى حتى لم يعد ممكنا تحديد لونها الاصلى ثم أتت لى بفنجان شاي وهي تقول انها تحب أغاني أم كلثوم وان أخاها عبد الكريم سمي ابنه جمالا على اسم جمال عبد الناصر . وضحكت فباتت سنتها الذهبية ثم سألتني ان كنت أريد غرفة بالفندق فقلت اننى لا أريد فاستأذنت قائلة ان عليها بعض الاشغال .

جلست في انتظار سعد في المكان المعتم الذي اسمته المرأة الجزائرية « الصالون » ما ان يأتي سعد حتى أخذه الى فندق آخر يليق بالبشر ! رأيت المرأة الجزائرية تتحدث مع شاب آسيوى ثم

تخرج من وراء العارضة الخشبية ويحل هو محلها . حينئذى وذهبت قائلة « لا تقلقى ، لن يتأخر سعد ، الى اللقاء غدا » تابعت حركتها الثقيلة وردفيها الممثلين وثوبها القطنى الرخيص وهى تغادر . نظرت الى حيث كانت تقف فالتقت عيناي بالشاب الاسيوى الذى ابتسم ابتسامة عريضة بلا داع .

كدت أغفو وأنا جالسة انتظر وربما غفوت وصحوت على سعد يهتف : « ماما ، غير معقول ! » قال انها مفاجأة .
- لماذا لم تقولى لانتظرك بالمطار ؟!
- احزم امتعتك لنذهب الى فندق .
- ولكن هذا فندق - توقف - لا يناسبك اليس كذلك ؟ .
على اى حال اقضى الليلة هنا معى وفى الصباح نبحت عن فندق آخر .

- الان سنذهب ! احزم امتعتك وقل لهذا الاسيوى ان يبحث لنا عن مكان فى فندق من فنادق الدرجة الاولى .
- ولكن ...
- سعد اننى انتظرك منذ ثلاث ساعات . لا أريد ان انتظر اكثر !

كنت مرهقة وحادة المزاج . تحدث سعد مع الشاب الاسيوى ثم سعد ليأتى بحقيبته .

ركبنا سيارة اجرة الى فندق بالشانزليزيه على مقربة من قوس النصر . كان الفندق ذا طراز عتيق سقفه عال تتدلى منه ثريات الكريستال الضخمة . اعطى موظف الاستقبال مفتاح الحجره لشاب اسمر حمل حقيبتينا واستدعى المصعد فتبعناه . توقفنا فى الطابق الثالث . ادار الشاب المفتاح فى الباب فانفتح على غرفة فسيحة بها سريران . وضع الحقيبتين وقال « تصحان على خير » وذهب . قلت لسعد « الان سانام لاني متعبة وفى الصباح نتحدث » قال « لم تاكلى شيئاً يا ماما ، الست جائعة ؟ » قلت اننى لست جائعة ودخلت الحمام وخلعت ملابسى وفتحت الماء لانهجم .

عدت بسعد الى القاهرة وقال كمال : « هذه اقصر زيارة الى باريس سمعت بها » ولم اكن تغيب سوى ٢٩ ساعة . قلت : « لم تكن زيارة الى باريس ، كانت مهمة لانقاذ الولد . سعد سيكون طبيباً ، اهمته ذلك ، ولا مجال لعبث الاطفال ! » .

سننشئ مستشفى خاصا ، ننشئه على قطعة ارض كنا اشتريناها قبل عدة سنوات لتقيم عليها بيتا بحديقة ولم نفعل . مساحة الارض مناسبة وموقعها ممتاز فهي تطل على النيل في الطريق الى المهادى . سافر كمال الى المنيا حيث يملك أرضا زراعية وباعها وعاد بحقيبة جلدية صفت فيها الاوراق النقدية رزما ، كل رزمة منها مربوطة بأستك قال « مات عبد الناصر واستقرت احوال البلاد الاقتصادية وأصبح بإمكاننا أن نبدأ » .

حديث المستشفى موضوعنا اليومي ، ما تم ، وما سوف يتم . اتفق كمال مع شركة مقاولات لمعاينة الارض ووضع التصميم الهندسي المناسب . مستشفى كبير من عشرة طوابق مزود بأجهزة حديثة وأطباء مهرة وممرضات متمكنات وحديقة بها زهور ومقاعد خشبية مطلية بألوان زاهية . هذا ما يخلم به كمال وما احلم انا ايضا معه . كل يوم اذهب الى موقع العمل . ما ان احتسى الشاي حتى اركب سيارتى واقودها الى ميدان التحرير ، اتجاوزه ثم انعطف يسارا الى كورنيش النيل . وأسير في خط مستقيم بمحاذاة الشاطئ حتى اصل . اراقب الالات الضخمة وهي تدك الارض بايقاع منتظم وعال يصم الاذان . . المساحة متساوية الاضلاع تشبه صندوقا تقائرا في الارض هي المساحة التي تقام عليها الاساسات . بعد وضع الاساسات بدأوا فى اقامة هيكل المبنى . أكوام من الاسمنت والزمل والزلط وصفات من الطوب تملأ المكائن وعمال البناء يشتغلون فى ملابسهم الداخلية الرقبة يتوزعون على الارض وفوق السقالات ، كل شئ يسير كما يجب ! . ستكون المستشفى من عشرة طوابق يخصص الطابقان الاول والثانى للعيادة الخارجية يتوسط كل منهما قاعة واسعة للانتظار تحيط بها غرف الكشف . فى الطابق الاول غرف الكشف الباطنى والجراحة وأمراض النساء والاسنان والعيون وفى الطابق الثانى التحاليل والاشعة ورسم القلب . وفى الطابق الارضى المغاسل والمطابخ . وفى الطابق الاخير سكن الأطباء . أما الطوابق الستة الاخرى ففيها خمسون غرفة مخصصة للنزلاء من المرضى الى جانب الصالات وحجرات الممرضات . وفى مدخل المستشفى بجوار الاستقبال ثلاث محلات صغيرة احدها لبيع الزهور والثانى للحلوى والثالث للمجلات والجرائد .

قلت لكمال اننى مستعدة لتحمل مسؤولية الاشراف على تأثيث المستشفى . المهمة صعبة ومرهقة ولا تترك لى ساعة فراغ ولكنى اجد فيها متعة . ااقارن بين الامكانيات والبدائل وأستقر فى نهاية المطاف على التعامل مع محل كبير للاثاث يديماط يملكه الحاج عبد الرسول سيصنع كل ما تحتاجه المستشفى من أسرة وخزائن وطاولات وسيكلف اثنين من التجارين الاكفاء بعمل دواليب الحائط. اتفقنا على كل شىء المقاسات ونوع الخشب أو المعدن والطلاء والشمع وموعد التسليم .

رغم تعدد مسؤولياتى الا اننى اشعر بالارتياح والرضا . التحق سعد بكلية الطب وأصبحت سوسن فى السنة الرابعة بكلية الحقوق وعادت زينب من الخارج مع طفليها . عجبت كيف كبرت خديجة فى العامين اللذين تقيبوهما فى الخارج والصغير كريم لطيف وجميل ولكن للأسف لا أتمكن من رؤيته كثيرا . زينب تحتاج وتقول اننى نسيتها واننى فى السابق كنت أزورها يوميا والان لو لم تسأل هى عنى وتأتى لرؤيتى لا ترانى . أؤكد لها أن كلامها غير صحيح ، كل ما فى الامر أن المستشفى يبتلع الوقت ابتلاعا !

أذهب كل يوم الى المعادى أتابع العمال وهم يمدون مواسير المياه أسلاك الكهرباء ويبلطون الارضية ويركسون الابواب والنوافذ . سباكون وكهربائية ونجارون ومبلطون يعملون طول اليوم وعلى أن أمر عليهم لاشعرهم ان للعمل صاحبا مهتما حريصا ومفتوح العينين . العمال مهملون لا يقومون بواجباتهم الا لو وقف صاحب المصلحة على رءوسهم ، وأنا أقف على رءوسهم .

أستيقظ فى الثامنة وأشرب الشاى مع كمال ثم يذهب هو الى عمله واعطى أنا التعليمات للطباخ والشغالة بشأن المطلوب للبيت من اكل وترتيب ثم أقود سيارتى الى المستشفى أضغط على بوق السيارة فيهرول عم هريدى البواب ويفتح البوابة الحديدية التى لم يتم طلاؤها بعد. أوقف السيارة امام باب المستشفى وأصعد . أمر بالنقاشين فى مراحل مختلفة من العمل ، فى الطوابق الاولى يقومون بطلاء الطبقة الثالثة والاخيرة . يقفون على السلالم الخشبية الزدوجة وسطل الطلاء فى يد والفرشاة فى اليد الاخرى . تغمس الفرشاة فى الطلاء وتتحرك بطول الذراع جيئة وذهابا تضيف على الجدار لمة سميكة مبللة . اما فى الطوابق العليا فلا زال العمال يصنفرون الجدران بأوراق الصنفرة الخشنة ويمعجنونها . الصبيبة الصفار يعدون الغراء على مواقد الكيروسين ويخلطون الطلاء فى الاسطل المعدنية . اراقب العمل

واتابع وادقق وابدئ الملاحظات وابنه للعيوب واطلب اصلاحها وتلافيها . وعندما انتهى من المرور في الطوابق العشرة انزل الى الغرفة المخصصة لي بالطابق الاول فتأتي لي زوجة عم هريدي بفنجان قهوة . احتسيه وادخن وانتظر ساعة أخرى ادون الاشياء المطلوبة منى ثم اركب سيارتي واعدو الى البيت .

حددنا موعد الافتتاح بعد شهر من انتهاء بناء المستشفى . اشرف كمال مع عدد من الاطباء الشباب الذين يعملون معه على نقل الاجهزة الجديدة التي وصلت من الخارج في علب كرتونية مغلقة . قاموا بفتحها وتجربتها واشرفت أنا على نقل الاثاث وتأكدت أن كل شيء أصبح في مكانه بما في ذلك الستائر وأصص النباتات والزهور . وجبنا الدعوات لحفل الافتتاح وأرسلت تهنئة الى كمال بهذه المناسبة نشرناها في الجرائد الى جانب التهاني الاخرى التي بعث بها زملاؤه

في صباح اليوم المحدد ذهبت الى الحلاق فحماه صبغة شموي بنفس اللون البنى الفاتح الذي اعتدت عليه في السنوات الاخيرة وصففه لي . وفي الرابعة بعد الظهر لبست ثوبا جديدا من الدانتيل الاسود وتزينت وتعطرت وتحليت بعقد الماس والاسورة والحلق الماسيين . لبست حذاء من الستان الاسود والقيت نظرة أخيرة على المرأة « ما رأيك ؟ » أجاب كمال « رائع ، الملكة فريدة في زمانها لم تكن أكثر أناقة ! » ضحكت وقلت انه يبالغ ولكني سعدت بالمحظة .

ركبنا في المقعد الخلفي وقاد بنا السائق السيارة الى المستشفى . . . وكانت البوابة الحديدية المظلية حديثا بطلاء أسود لامع مفتوحة على مصراعيها يقف بجوارها عم هريدي وقد لبس جلبابا رماديا جديدا وعمامة بيضاء ناصعة . بداخل المستشفى وجدنا عددا من الاطباء والمرضات وزينب ومجدى وسعد . سألت عن سوسن « كانت هنا ، ربما نزلت الحديدية » ثم رأيتها ، صعقت ! كانت البنت المجنونة قد أتت بالصندل وستان قطني من الفسنتين التي تذهب بها الى الجامعة . انتحيت بها جانبا ووبختها قلت « عودي الآن فورا الى البيت غيرى ملابسك وأرجعي ! » تركتها وذهبت لا وقت لدى للتعامل مع جنونها . لماذا لم تفعل كزينب ؟! جاءت زينب بثوب من الحرير الطبيعي الكحلي مفتوح النحر وبلا أكمام يبرز بياض بشرتها وكانت تتحلى بعقد من اللؤلؤ الحر يناسب دكئة الثوب ، بدت جميلة وراقية ، تشرف .

بدأ الضيوف يتوافدون ثم وصل المحافظ فالوزير وبدأ كمال يريهم أقسام المستشفى وتجهيزاتها ورحنا ننتقل من طابق الى طابق ومن حجرة الى حجرة وعلق الوزير ضاحكا « ذوق خديجة ملموس في كل ركن ! » الوزير صديق قديم كثيرا ما دعوانه الى العشاء في بيتنا قبل أن يصبح وزيرا . كمال يقول انه طبيب متوسط الامكانيات ولكنه ماهر جدا في العلاقات العامة .

في السادسة الا خمس دقائق كنا في طريقنا الى « التراس » لتناول الشاي . قال المحافظ عندما وصلنا « ولكنه أكثر من مستشفى انه مزيج من مستشفى وفندق فاخر ! » فضحك كمال وقال « هذه أفكار خديجة » ابتسم لي المحافظ فرددت بالابتسام . كان المقهى جميلا فعلا على سطح المبنى تحيط به من ثلاث جهات أصص من زهور الفل والبانسيه موضوعة في حوامل مستطيلة من البلاستيك المثبتة بمحاذاة السور . وكانت الموائد الصغيرة قد أزيحت جانبا ووضعت بدلا منها مائدتان كبيرتان على كل منهما مفرش أبيض . واحدة منها تحمل الفناجين والاطباق والسكريات واللبانات والاطباق بها اكياس الشاي والقهوة والثانية عليها قطع الحلوى والمملحات وكان هناك أربعة شباب يلبسون سترات بيضاء يقومون على خدمة الضيوف .

في السابعة والنصف ودعنا اخر الضيوف وقال كمال انه بإمكاننا أن نشرب فنجال قهوة في هدوء قبل أن ننتقل الى الفندق للعشاء . قالت زينب ان كل شيء تم بأفضل شكل ممكن فعلق مجدى ضاحكا « طول عمرى أقول ان خديجة مستبدة رائمة ! » ضحك كمال وزينب ولكنى لم أضحك فهل قصد مجدى الاطراء أم الذم ؟ قال كمال موجها كلامه لسوسن التى كانت قد عادت بثوب لائق « لا أدري ياسوسن لماذا لا تتزينين ، شيء بسيط من الزينة يجعلك كالاميرات » وضحكت « ولكنى سأكون محامية وليست أميرة ! . هل رأيت أميرة تلبس روب الحمامة ؟! » قال لها وهو يضحك ان لسانها طويل فأجابته مداعبة « وهذه أيضا من صفات المحامين ! » سوسن بحاجة لرعاية مستمرة . لو تركت لسانها لاصبحت كالهيبين مهوشة الشعر رثة الثياب . ابوها على حق ، حين تعتنى بملابسها يصبح واضحا انها بنت ناس ولكنها عنيدة . قال كمال لسعد « كان حلمى دائما أن أبني هذا المستشفى . في الخمسينيات كنت شابا ولم يكن لدى لا الاسم الذى يسمح ولا المال الذى يكفى . وفي الستينيات طلوعوا علينا بموال الاشتراكية فلم يعد الواحد منا يأمن على الخاتم في أصبح زوجته ثم أنقشمت الغمة وعشت لاحقق حلمى . حين تتخرج من كلية الطب ياسعد

وأراك تدبر هذا المستشفى ساكون قد حققت كل شيء . ساعتها اضح
رأسى فى هدوء وأموت مرتاحا « احمر وجه سعد وعابت كمال على هذا
الكلام الحزين الذى لا داعى ولا معنى له . قلت وأنا أنظر لساعتى أن
علينا التوجه الى الفندق لكى نكون باستقبال ضيوفنا .

أنا وكمال وسعد ركبنا سيارتنا السوداء التى يقودها المسائق
أما زينب وسوسن فذهبتا مع مجدى فى سيارته . عندما خرجنا من
البوابة الحديدية رفع عم هريدى يده بالتحية رأيناه يطلق البوابة
بالسلسلة الحديدية .

ينساب الطريق لعدة كيلو مترات ثم يزدحم وعندما نصل مصر
القديمة يخنق . يتحرك صف السيارات الطويل فى بطء ثم يتوقف
ثم يعود يتحرك كزاحفة معاقة . النيل عن يسارنا غارق فى الظلام
تحدد ضفتيه أضواء الكورنيش ومسالك جزيرة الروضة . وعن
يميننا صف الحوانيت الصغيرة الرثة وبعض المقاهى . يبقى الطريق
مزدحما حتى نصل الى كوبرى الملك الصالح نعبه ونواصل عبور
شارع الروضة الى كوبرى عباس فميدان الجيزة فقطع عندما تقطع
النفق يخفف الزحام ويتمكن السائق من قيادة السيارة بسرعة عادية .
الشارع واسع تناسب فيه حركة المرور حتى تبدو لنا الاهرام كتلال
داكنة فى الليل . ينحرف السائق يمينا وبعد دقائق يتوقف امام الفندق
الكبير بجوارنا يتوقف مجدى بسيارته . نزل ونقترب من الباب الزجاجى
فينفتح آليا . ندخل الى حيث الهواء المكيف والبرودة المنعشة .

أقول اننى سوف ادخل الى دورة المياه لاصلاح زينتى «وأنا أيضا»
تقول زينب وتحببني . ندفع الباب الكحلى المثبت عليه شكل معدنى
لوجه امرأة نتجه الى الاحواض اولا . اغسل يدي وابلل منديلا ورقيا
أمسح به وجهي . تحذو زينب حذوي . ثم ننتقل الى المرايا . تجلس
كل منا امام واحدة وتفتح حقيبة يدها وتخرج عدة زينتها ، كريم
الوجه والبودرة وأحمر الشفاه والكحل وظل العينين ومزيل العرق
والعطر . تتزين ونصفف شعرنا ونعطر ثم ندفع الباب الكحلى ونخرج
لنلتحق بكمال وسعد ومجدى وسوسن وننتظر معهم الضيوف .

ضيوفنا ستة الدكتور سالم وزوجته وابنتهما ، الدكتور منير الذى
عاد مؤخرا من السعودية وزوجته وطبيب شاب يحبه كمال كثيرا ويقول
انه ممتاز اسمه هلال . وصل الدكتور سالم فى موعده بالديقة .
رأيته عبر الباب الزجاجى يقترب بخطواته الثقيلة متكئا على ذراع
زوجته . قال وهو ينحنى ويقبل يدي كعادته «اهلا بالملكة» ضحكت
وسلمت على زوجته احسان وقبلتها أما رائدا فضممتها الى صدرى وأنا

اقول اننى كل مرة أراها أجدها كبرت قليلا واحلوت كثيرا . لرندها كفاء ايها وجمال أمها ورقبها فى الهندام والسلوك وأنا أحبها كثيرا . لم ننتظر طويلا . جاء الدكتور منير وزوجته فى نفس الوقت مع للدكتور هلال . كنت أعرف منيرا جيدا ولم أكن رأيت هلالا سوى مرتين . اما زوجة منير فكانت المرة الأولى التى كنت أراها . فاجأتني بثوبها المقصب الالامع وغطاء رأسها الأشبه بعمامة مطرزة عليها وردة هائلة على جانبها الايمن خيوط القصب . التقت عيناي بعينى زينب ولكنى تماكنت نفسى وابتسمت مرحبة وأنا أدعو الجميع للطابق العاشر حيث المطعم .

وجدنا المائدة بانتظارنا تحمل بطاقة الحجز وعليها مفرش فستقى منشى وقوط بنفس اللون مطوية طويات صغيرة طويلة ومثبتة من أسفل كل بحلقة فضية ومنشورة من أعلى فى شكل مروحي . الاطباق والاكواب والفضية منسقة بالشكل اللائق يتوسطها مزهرتان للوريتان بكل منهما وردة بلدية حمراء وبينهما شمعدان من فضة به ثلاث شموع مضاعة . وكانت المائدة ملاصقة للمربع المخصص للرقص والعروض الفنى . جلسنا ، كمال على رأس المائدة وعن يمينه الدكتور سالم وعن يساره احسان ، بجوار الدكتور سالم جلست زينب فالدكتور منير ثم سوسن فالدكتور هلال . وبجوار احسان جلس مجدى فزوجة منير ثم سعد فراندا وجلست انا على الرأس الاخر للمائدة . جاء النادل بعصير البرتقال ثم وزع علينا قائمة الطعام لاختار ، اخترنا . ضوء خافت وعزف ناعم والدكتور سالم يقول : « احسنت يا خديجة الاختيار » ثم يضحك « ولكن قولوا لى هل هى مؤامرة تجلسونى فى أقصى مكان ممكن عن خديجة ؟! » الدكتور سالم راقى ومهذب تعلم فى أوروبا وظل محتفظا رغم سنه بالسلوك الاجتماعى المنمق . يحيى النساء بتقبيل ايديهن ويعرف كيف يقول لهن كلمات الاطراء الرقيقة واحسان راقية مثله تعرف كيف تلبس وكيف تضع المساحيق ، كيف تتحدث ومتى تتحدث لو تطيع زوجة منير بشيء من اناقته . كدت أضحك من هذه الطاقية التى وضعتها على رأسها ومن الاحمر المؤذى التى صبفت به شفيتها . اتى النادل بالطعام . ترى اين ذهب مجدى؟! ناكل ، عاد مجدى وبدا هو ايضا يأكل .

قال الدكتور منير انه سمع أن فؤاد سراج الدين قدم طلبا لتشكيل حزب الوفد من جديد قال كمال ضاحكا « وهل ما زال به رمتق ؟! » فاعترض الدكتور سالم وقال بجدية شديدة « لا تخطيء يا كمال انه الوحيد المؤهل لقيادة البلاد » . ضحكت سوسن فسألته بصوت

هامس « لماذا تضحكين ؟ » فقالت « تذكرت شيئا مضحكا » واصل الدكتور سالم « لو سمح السادات بتكوين حزب الوفد يكون اثبت انه ديمقراطى فعلا ويكون حقق للبلد ثلاثة انجازات عظيمة : الانفتاح والديمقراطية والانتصار على اسرائيل فى حرب اكتوبر » فقال الدكتور منير نسيت انجازا آخر يا دكتور : « طرد الخبراء السوفيت من مصر » وقال كمال « باختصار أعاد مصر الى الدنيا . كان الاخر قد دفنوها بالحياة ! » هلال ينظر الى سوسن نظرات مختلصة ، لاحظ ذلك . يقول عنه كمال انه شاب ممتاز ، خجول وقليل الكلام ولكنه جراح موهوب وابن ناس . راندا تتحدث مع سعد بطلاقة وبساطة ، أحب هذه البنت ، تابعت نموها منذ كانت طفلة فى الخامسة ، كانت دائما ذكية ولطيفة المعشر . يحتل العازفون أماكنهم ويبسداون فى عزف موسيقى راقصة . قام بعض الجالسين للرقص . وقال الدكتور سالم وهو يضحك « قم يا كمال أرقص مع خديجة والاقمت أنا » وكان يمزح لانه يمشى بصعوبة متكئا على عصاه أو مستندا الى ذراع احسان فقال كمال « منذ شهر اكلت الستين ، راحت على يا دكتور سالم . قم أنت ياسعد أرقص مع راندا » قام سعد ليراقص راندا . وقال مجدى بشكل مفاجئ « وأنا سأرقص مع خديجة ! » وتطلعت اليه باندهاش ولكنه قام من مقعده ووقف بجوارى وأمسك بيدي فقمت . قلت له وأنا أتبعه الى دائرة الراقصين « ألم يكن أنسب أن تطلب زينب للرقص أولا ؟ » فأجاب « سأرقص معها بعد ذلك » يحيط مجدى خصرى بذراعه اليسرى ويضع يده اليمنى على كتفى ، يراقصنى ويقود خطوتى بقوة ويسر . وجهه قريب من وجهى ، أقرب مما ينبغى . أشعر بأنفاسه . أسأله « هل شربت يا مجدى ؟ » قال « ماذا أفعل ان كنتم بخلاء ؟ لا تقدمون لضيوفكم مشروبا ؟ ! » قلت « لو عرف كمال انك تقيمت عن المائدة لتذهب الى البار لفضب منك » قال وهو يضحك « هذه اول مرة أرقص فيها معك ، هل تعرفين ذلك ؟ » قلت وأنا أبتسم « اعرف ! » وهل تعرفين انك أجمل امرأة رأيتها فى حياتى ؟ » تركت يده وقلت له بصرامة « مجدى أنت سكران ! » فضحك وقال باحتجاج « وأقول هذا الكلام لانى سكران ؟! حرام عليك . هذا رأى منذ ثلاثين سنة منذ رأيتك تتزينين للقاء كمال يوم جاء لخطبتك وقالت لى أمك روح يا شاطر عند جدتك ولما روحت بكيت وقلت لجدتى اشمعنى أحمد يقابل العريس ويجلس مع خديجة وهى جميلة هكذا ، ساعتها ضحكك جدتى منى تماما كما تفعلين الان » ضحكك ولكن مجدى لم يضحك وشعرت بذراعه تلتف على خصرى بقوة أكثر ، كان جسده

قرب مما يجب . قلت « يكفي يا مجدى ، لنعد الى مقاعدنا » قال
« ولكنى أريد أن أرقص معك ! » قلت « وأنا أريد أن أعود الى مقعدى ! »
ولم أنتظر . خرجت من دائرة الراقصين وتبعنى . هل مجدى نلأم
أن هناك ما يربكه ويجعله هشا ؟ هل لا تعطيه زينب ما يحتاجه ؟ انه
مرتبك ومرتبك .

لم يطلب هلال سوسن للرقص بل طلبها سعد ولم يطلب مجدى
زينب فقلت بصوت عال : « قم يا مجدى ارقص مع زوجتك » فقام .
وعندما انتصف الليل قامت فرقة العازفين المصاحبة للرقص
الغربى وحلت محلها فرقة شرقية لمصاحبة البرنامج الفنى . قام مجدى
فلحقت به وقلت له بصرامة « او ذهبت الى البار مرة أخرى فسأقول
لكمال ، وقد يوبخك أمام كل المدعوين ! » فأجاب « خديجة لماذا
لا تتركينى وشأنى ! » وتركنى وذهب .

ظهرت الراقصة وبدلنا مواقع مقاعدنا قليلا حتى تتمكن من
المشاهدة . للراقصة شعر أسود طويل يصل الى منتصف ظهرها
ووجه مثقل بالمساحيق وتوب قماشه لامع وسميك فيما يغطى الثديين
والردفين أما ما عدا ذلك فغلاظة رقيقة تشف عن تفاصيل الجسم .
ترقص حافية القدمين على ايقاع الطبال وضارب الدف . تبرز الساق
اليمنى من أعلى الفخذ حتى القدم العارية من تحت ثنيات الثوب تدق
الأرض بحركة تواكب اهتزاز الكتفين خضخة الشدين وتقوس
الذراعين ولحم البطن العارى يتموج ويرتج . قال كمال « أول مرة
شاهدت فيها راقصة بلدية أصابنى الذعر ! » ثم وهو يضحك « مارأيك
ياسعد !؟ » فتمتم سعد بشئ غير مفهوم واحمر وجهه . قالت زوجة
الدكتور منير « الرجال يحبون الرقص البلدى لان عيونهم فارغة ! »
فلم يعلق احد على كلامها . هذه المرأة تكسف فى لبسها وحديثها .

تقترب الراقصة منا وتصعد فوق مائدتنا وترقص عليها ويتطاير ذيل
تويها الشفاف فى وجهنا فنضحك ونصفق لها على الواحدة والنص
وهى تهتز وتمايل وتنشى وتدور وتقفز وتلف وترجرج فى حسية
بالفة . ثم قفزت الراقصة بليونة من فوق مائدتنا وانتقلت الى مائدة
أخرى وقالت احسان « أين ذهب مجدى !؟ » ضاعت فرصته
فى المشاهدة وقال الدكتور سالم « هذه الراقصة موهوبة » ثم وهو
يكلم راندا يتسما « ما رأيك يا راندا ، سندعوها لكي ترقص فى
فرجك ! » فسألت زوجة الدكتور منير « هل راندا مخطوبة ؟ » فضحك
الدكتور سالم « ليست مخطوبة » فضحكت أنا وقلت « ألف من
يتمناها وأنا أولهم ، ما رأيك يا راندا !؟ » فابتسمت راندا واحمر
وجهها وكذلك سعد أحمر وجهه ولكنه لم يتسما .

لم يظهر مجدى الا ونحن على وشك المغادرة ولاحظت احتقان وجهه
« هذا المجنون ، أسرف فى الشراب ، فكيف يقود السيارة الان ؟ »
دعنا ضيوفنا وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل
كان السائق فى السيارة قد أغفى مستندا برأسه الى المقود . دق له
سعد على نافذة السيارة فانتبه ونزل ليفتح لكمال الباب . قلت لكمال:
« يبدو أن مجدى متعب ، سأقود أنا سيارته تعالوا أنتم ورائى حتى
بيت زينب فأركب معكم » ركبت سوسن وسعد مع كمال والسائق
وقدت أنا سيارة مجدى . جلست زينب بجوارى ومجدى فى المقعد
الخلفى . كانت زينب تلتفت اليه وتكرر السؤال عن حالته ولماذا
لم يقل انه متعب . قلت : « ليس متعبا ، السيد المحترم كان يتركنا
ليذهب الى البار ويشرب ، انه سكران ولو تركته يقود السيارة
فستنتهى الليلة بكارثة » قال مجدى : « خديجة أنا أحبك فلماذا
تكرهينى ؟ ! » زجرته زينب أما أنا فلم أجبه .

لا وقت لدى للراحة ، لا وقت ! يأخذ المستشفى كل وقتى .
اذهب اليه كل صباح ولا اعود الا بعد الظهر واحيانا اعسود في
المساء . اشرف على كل شئ ، الاكل والنظافة والنظام ورعاية
المرضى . فقط يوم الجمعة لا اذهب . اصف شعري عند الحلاق
ثم تاتي زينب وأولادها ونجتمع على مائدة الغداء . كمال يقول
« أنت الكل في الكل » فى المستشفى أيضا يقولون ذلك . أحب
ان يسير العمل بانضباط الساعة ودقتها . المستشفى مؤسسة
كبرى لها اسمها وسمعتها والمرضى يأتون اليها ليس من مصر وحدها
بل من كل البلاد العربية . ابنة رئيس الجمهورية وضمت عندنا
ورئيس الجمهورية زارنا وتعرفت عليه وقدمت له الشيكولاته
وشربت معه القهوة ووجدته رجلا لطيفا جدا ومهدبا واستغربت
ان يكون له اعداء ومعارضون . اميرة سعودية اجريت لها جراحة
ناجحة عندنا وشخصيات كبيرة ومتنفذة تاتي عندنا لأن الكل يعرف
انه فى الخدمة الطبية وفى النظافة والترتيب نحن الاكثر تفوقا .
يقولون اننى صارمة ولكن الادارة تتطلب ذلك . لا اطيع رؤية ممر
غير نظيف ولا ممرضة مهوشة الشعر ولا عاملا ياتى متاخرا خمس
دقائق . نحن ندفع اعلى الرواتب ومن حقنا ان نحصل على افضل
نوعية من العاملين . المهمل انهى خدمته ، بلا طول كلام ، الصرامة
لازمة ونتائجها واضحة والذكاء ضرورى كذلك الحساسية فى
التعامل . وردة وكمكة صغيرة مع بطاقة تهنئة للام صبيحة يوم
الولادة ، زيارة سريعة مع كلمة طيبة للمريض بعد العملية . منذ
افتتحت المستشفى لم تحدث مشاكل ، المشاكل انهبها قبل ان
تصبح مشاكل . مرة واحدة فقط لم اتمكن من محاصرة الامر .
مريض وقع اجريت له عملية وامضى بالمستشفى عشرة ايام كاملة
عند المفادرة طلبوا منه عشرة آلاف جنيه فقال « لماذا ؟! » اوضحوا
له ان المبلغ مقابل الفحوصات والتحاليل التى اجريت له قبل
العنلية وبعدها والعملية نفسها والاطامة والرعاية الطبية . علا صوته
واتهمنا بالسرقة فطلبنا له الشرطة . يجب الا نتعامل مع هذه النوعية
من الناس هذا المستشفى محترم ولا بد ان يقتصر على المحترمين
ومن كانت امكانياته المادية لا تسمح فليبحث لنفسه عن مكان آخر .

انا نصرف على المستشفى بسخاء فهل نعمل بلا مقابل ؟ والاموال الطائلة التى وضعها كمال فى المشروع هل تذهب كأنها ضاعت منه فى الطريق . اليس من حقه أن يسترد شيئا منها ؟! لسنا ملجأ ولا مشروعا خيرا . انا مستشفى محترم للناس والمحترمين .

قلت لكمال ان اهلنا ، اهلى واهله ، قد دعوا لنا وان الله يوفقنا فى كل شىء والمستشفى يحقق نجاحا مدهشا ليس فقط فى السمعة والمكانة ولكن ايضا فى الدخل الذى يدره . وسعد الله هداه والتحق بكلية الطب وزينب سعيدة مع مجدى والصفيران ممتازان وسوسن تخرجت من كلية الحقوق . علينا أن نذهب للعمرة ونزور قبر الرسول ونصلى فى الحرم ونسجد حمدا لله الذى لم يبخل علينا بأى شىء . نخطب لسعد ونزوج سوسن وبعدها نسافر للعمرة أو ربما حتى للحج « ماراىك فى راندا لسعد ؟ » قال « وما داعى الاستعجال ، اتركه حتى يتخرج من الجامعة » فقلت له « ان راندا لن تنتظر وقد يخطبها غيره فنندم على تأخرنا » ولكننا لانعرف رأى سعد « اقنعت كمال بأن يترك الامر على ، لن يقول سعد لا ، ولو قالها فلن يكون لديه سبب سوى العناد فراندا جميلة وبنت ناس ولا يمكن لعائل الا ان يتمناها .

لم يبد على سعد الحماس ولكنى اقنعتة وذهبت مع كمال لزيارة الدكتور سالم وطلبنا البنت . قرانا الفاتحة واتفقنا على كل شىء .

سعد وردتى وهو الاقرب والاغلى والاحلى . فى ليلة خطبته كنت اتطلع اليه فتملا عيني الدموع وتأتبنى صورته وهو قطعة لحم صغيرة ودافئة بين ذراعى واكاد اشعر بفيض الحليب فى ثدى وبالفم الصغير يرضع منه . ليسعدك الله ياسعد ويملا أيامك بالفرح وتصبح اعظم طبيب فى البلد .

عندما اليس سعد راندا خاتم الخطبة وخاتم الشبكة خلعت انا عقد الماس الذى كنت اتحلى به واحطت به عنق راندا . بكيت احسان تائرا وقالت ان هذا كثير فاجبتها وانا ابتسم ان راندا ست البنات ولا شىء يكثر عليها .

لم يبق اذن الا ان أزوج سوسن . كنت افكر فى ذلك وانا فى طريقى الى المستشفى وعندما وصلت قالتلى سكرتيرتى ان « فؤاد ييه » فى انتظارى فى المكتب . توقعت ان تكون زيارة لعمل بعض الفحوصات . كان الرجل الذى يشغل منصبا كبيرا فى الدولة قد دخل المستشفى قبل فترة واجرى له كمال جراحة ثم وضعت

ابنته طفلها عندنا فأصبحت تجمعنا علاقة ود وتزاور عائلي . دخلت المكتب فقام ليصافحني . كان طويلا يميل الى الامتلاء يلبس كعادته قميصا ابيض وبدلة داكنة من ثلاث قطع وربطة عنق حريرية ، كان هيئته تشي بالاهمية والاحترام . بدأ بالاعتذار لانه جاء بلا موعد قال « انتم ناس طيبون . الدكتور كمال طبيب عظيم وانت سيدة فاضلة . فكرت ان احدث الدكتور كمال في الامر ثم عدلت وقلت انك قد تكونين اقدر على التصرف » اتى الساعى بالقهوة فتوقف فؤاد بيه عن الكلام . « اقدر على التصرف ! » استوقفتني العبارة وبدأت اتوجس . كنت اظن الرجل جاء قاصدا خدمة . اغلق الساعى الباب فواصل فؤاد بيه « باختصار ياسيدة خديجة كنت مع صديق حميم بوزارة الداخلية وبالصدفة جرنا الكلام الى الحديث عن الدكتور عبد الموجود اسماعيل وهو استاذ في كلية الحقوق . قال صديقي ان هذا الاستاذ مشاغف ولن يردعه سوى الاعتقال فقد جمع حوله مجموعة من الشباب كانوا طلابه وهو يلتقى بهم بانتظام بشكل مشبوه ولذلك فقد ادرج اسم الاستاذ وكل المترددين عليه في قوائم بوزارة الداخلية » كنت اشعر بفضة في حلقى وجفاف في فمي واعرف ما الذى سوف يقوله الآن : « ولقد ذكرلى صديقى بعض أسماء هؤلاء المحامين وأدهشنى جدا ان اجد اسم سوسن ابنتك بينهم . تصورت ان هناك تشابها في الاسماء ولكن صديقى أكد لى أنها سوسن ابنة الدكتور كمال وانها فتاة مشاغفة مشاكلها كثيرة منذ كانت طالبة بالجامعة ولها ملف بالباحث . طبعاً رجوت صديقى ان يعمل على شطب اسمها » او اخفاء الملف لانه في النهاية هذه البنت ابنتنا . ساكلم اهله ليتصرفوا معها » كان يجب الآن ان اقول شيئاً ، لم اكن اعرف ما الذى يمكن ان اقله . شكرت فؤاد بيه بحرارة وقلت له ان تصرفه كرم لن انساه طول حياتى . سلمت عليه وودعته حتى باب المستشفى وأنا اكرر شكرى وامتنانى واؤكد له ان البنت طائشة وغير مسئولة وانى ساعاقبها واؤدبها واعلمها كيف تتصرف كأولاد الناس المحترمين .

غادر الرجل وعدت الى مكتبى طلبت فنجان قهوة وقلت للسكرتيرة اننى لا اريد ان اقابل احدا . كان على ان استجمع نفسى قبل ان افعل أى شىء .

سوسن مجرمة خدعتنى وخانت ثقتى فيها أوهمتني أنها ارتدت عن عنادها وسلوكها المراهق وهى على حالها لم تتغير . قال فؤاد بيه ان مشاكله كثيرة من أيام الجامعة . وزارة الداخلية

تعرف عن ابنتي اكثر مما اعرف . ماشاء الله وانا آخر من يعلم !
لو صفعتها الف مرة ماشفيت غليلي . تقوم بنشاط مشبوه ؟! انها
مجنونة .. اناانية لا تفكر في سمعتها ولا في سمعة ابها . ماذا يقول
الناس : ابنة كمال صفوت على علاقة بالصعاليك الذين لا عمل لهم
سوى معارضة الحكومة . ومن اين اتت بهذا الطيش ؟! لم يحدث
ابدا في عائلتنا ولا في عائلات المعارف ان خرجت بنت بهذا الشكل
عن الصراط المستقيم . لا بد ان اعرضها على طبيب نفسى قد تكون
مختلة عقليا . فماذا نفعل في هذه الحالة ؟ هل نودعها مستشفى
للأمراض العقلية ؟ لا داعى للفضائح ، من يتزوجها بعد ذلك ثم ان
الامر قد تنسحب عواقبه على خديجة ابنة زينب وبنات سعد فى
المستقبل . ولكنها ليست مجنونة انها ذكية وربما كانت اكثر اولادى
لماحية فما الموضوع اذن ؟ طيش ؟ عناد عدم تقدير للمسئولية ؟
كانت مراهة وكان ابوها يقول لى مرحلة وتمر ولكنها طالت ، طالت
بمالا يحتمل . عندما كنت فى سنها كنت مسئولة عن بيت وزوج
وثلاثة اطفال فماذا افعل ؟ هل احبسها فى البيت ؟ انها فى الخامسة
والعشرين .. فكيف احبسها فى البيت ؟! سأقول لها ياسوسن
اما ان تحترمى هذا البيت الذى تعيشين فيه وتحترمى اهله
وسمعتهم او تتركه ... وماذا لو تركته ؟ كيف تتركه ؟ هل هى
فوضى ؟ اليس لها أب وأم ومجتمع يحكمها ؟ ليست حرة تفعل
ما تشاء .. اتها ابنتى وعليها ان تطيعنى بالشرع والعرف والقانون .
وماذا اقول لكمال ؟ لم تعد صحته كما كانت وعلينا مراعاته .
قد يضابى بلذبة من خبر كهذا . انه مستنير ومترن ، هذا صحيح ،
ولكن اى اتزان هذا الذى لا يصدمه معرفة ان ابنته تصادق اشخاصا
على قوائم المشبوهين الذين تريد الحكومة وضعهم فى السجن ! لو
انه جبل لتفتت من الخبر وهذه ابنته ، سمعته وشرفه وعرضه ا
لن اقول له ، سوف اتصرف انا معها .

لاحظت ان المنافض الكبيرة الثلاث التى امامى امتلات باعقاب
السجائر وكذلك الفناجين الاربعة التى شربت فيها القهوة . غادرت
المستشفى وركبت سيارتى عائدة الى البيت .

عندما عادت سوسن الى البيت لم اقل شيئا ، تركتها تقبل
وحتى كعادتها وقلت دون ان ارفع راسى لانظر اليها اننى اريد ان
اتحدث معها بعد الظهر . قالت « نؤجله للمساء لان لدى مواعيد
» فاجبتها بقطع ادركته « الفى مواعيدك ، انه امر ضرورى ! »

وجلسنا لتناول الغداء . لم اخاطبها ولم ارفع عيني في اتجاهها .
ولما ذهب أبوها الى عمله ناديتها الى حجرتي وجلست على احد
المقعدين الوثيرين المقابلين للسريير وطلبت منها ان تجلس على المقعد
الثاني :

- اسمعى ياسوسن لقد عرفت ان الدكتور عبد الموجود اسماعيل
شخص سيء ومكتبه مشبوه وباختصار أريدك ألا تتصلى به ولا بأى
شخص يكون على علاقة به .
- لا أفهم

- زارنى اليوم صديق مرشح للوزارة وله معارف واصدقاء
من الوزراء وقال لى بوضوح ان الدكتور عبد الموجود وكل من حوله
لهم نشاط ضد الحكومة وان الحكومة لن تسكت على الامر وقسال
ان اسمك واسماء زملائك مسجلة فى قوائم فى وزارة الداخلية وانهم
قد يقبضون عليكم فى أى وقت .
- ولكن ما علاقة هذا الكلام بما قلتيه من ان عبد الموجود
اسماعيل سيء السمعة ؟
- العلاقة واضحة كالشمس . الرجل سيء السمعة لدى
الحكومة !

- عبد الموجود اسماعيل استاذ جامعى محترم وهو كاتب من ..
- لا أريد أن اسمع دفاعا عن هذا الشخص ولا أريد ان اناقش
الامر أصلا . أريد شيئا واحدا فقط : اقضى كل علاقة لك بهؤلاء
الناس هل تفهمين ؟!
هذه البنت ليست بسيطة ولا سهلة انها تحدى فى كائنى اطلب
منها أمرا مستحيلا .

- اختارى ياسوسن اما انا او هم !
- ماما لماذا تعقدين الامور ؟
هذا النقاش يجب الا يستمر ، لصبرى حدود ولا أريد ان
اضربها فمت لآترك الشرفة وقلت وانا واقف بالباب :
- انى اعطيك مهلة اسبوعا ليوم السبت .. السبت القسام
انتظر اجابتك اما انا او هم ... هل تسمعين ؟!

فى اليوم التالى اتصلت بعبد الموجود اسماعيل وطلبت مقابلته .
حدد لى موعدا فذهبت اليه . كان مكتبه مؤثما ومرتبيا بما ينم عن ذوق
رفيع وفاجانى ذلك كما فاجانى الرجل نفسه الذى كنت اظنه اكبر
سنا . كان فى عمر مجدى تقريبا له جسم رياضى ووجه متسق
القسمات وعينان ثابتتان . قلت :

- هي المرة الأولى التي نلتقي
قال :

- قد لا تذكرين ولكني قابلتك مرة في المستشفى وكنت أعود
صديقا لي هناك .

ابتسم وابتسمت ثم مرت ثوان من الصمت . لا بد من الدخول
مباشرة في الموضوع . قلت :

- يادكتور عبد الموجود ، أقصدك في خدمة . أنت استاذ ومرب
وكاتب كبير تتمتع بسمعة ممتازة ولك مواقفك السياسية الواضحة
ولكننا أسرة لم يكن لاي من أفرادها علاقة بالسياسة . كان أبى رحمه
الله صيدليا وزوجى الدكتور كمال صفوت جراح وزوج ابنتى مهندس
وابنى فى كلية الطب وسيصبح طبيبا كآبيه . اننا نخدم بلدنا بعيدا
من السياسة . وعندما التحقت سوسن بكلية الحقوق لم اتصور
قط أنها سوف تورط نفسها فى أى نشاط سياسى ولكنها تورطت
وواضح أنها الآن بعد تخرجها تزداد تورطا . أنت أستاذها ولقد
قصدت لكى تنصحها او على الأقل تتركها وشأنها فهى بنت ونحن
كأسرة لا نحتمل أن تدخل ابنتنا السجن او تصاب بأذى .

- هل طلبت منك سوسن ذلك ، هل جئت نيابة عنها ؟

- جئت نيابة عنها لانى أمها !

- لا أفهم !

- أقصد اننى وأبوها وأخوها لا نريد أن يكون لها أى ارتباط
بالسياسة ولا بأصحاب النشاط السياسى لاننا نخشى عليها .

هذا الرجل ثعلب مراوغ . تلمع عيناه ويتحدث ببرود :

- لم تعد سوسن صغيرة ياسيدة خديجة . اتركها اذن لتدير
حياتها كما تريد - ابتسم - ابنتك محامية ، هل تريد ان تدافع
عن حقوق الناس وتفترط فى حقوقها ؟!

قررت أن انهى اللقاء ، لا فائدة ، قلت وأنا اقوم للمفارقة :

- ليس من حقها أن تؤذى نفسها وتؤذينا معها !

لم يكن هناك جدوى من النقاش ، انه رجل سيئ ، وقد يكون
هو الذى ورط البنت فى العمل بالسياسة . ودعته بايماءة من رأسى ،
لم أمد يدي لمصافحته . كان يجب أن أخيفه وأرهبه وأقول له ان
اسمه على قوائم المشبوهين وأنه قد يقبض عليه فى أية لحظة .
لا يريد أن يترك سوسن وشأنها .. سأريه اذن !

طوال الاسبوع لم اكلم سوسن . كنت اتحاشى التقاء صيوننا ،
لا انظر في اتجاه تجلس فيه ، ان دخلت على في غرفة تركتها كأننى
لم ارها ، لا اسمع ما تقول ولو سمعت لا اعلق كأننى لم اسمع
حتى كان يوم السبت . ناديت عليها وسالتها :
- ماذا قررت ؟

- لم اقرر شيئا
- سوسن انا لا امزح ولا العب قلت لك ان امامك اسبوعا للتفكير
والاجابة فماذا قلت ؟

تنظر الى كأنها لا تخشانى ، كأنها لا تهتم ، باردة بشكل مثير .
اصرخ فيها :
- ماذا قلت ؟

بتبسم ابتسامة تكبر ثم تضحك :
- يا امى باحبيبتى لماذا لا تكف عن هذه المشاهد الميلودرامية
الصارخة ، ما تفعلينه وما تطلبينه غير معقول . حتى عبارتك « اما
انا او هم » . لا معنى لها !

هويت بكفى على وجهها مرة ثم اخرى . كان ذلك أكثر مما يحتمل
برودها ، صفاقتها ، ابتسامتها الوقحة كلها اثارتنى وجعلت الدم
يغلى في راسى ، امسكتها من كتفيها ورحت اهزها واصرخ فيهما
واسبها وابصق على وجهها . تخلصت منى وقفزت باتجاه الغرفة
وهى تقول :

- انك تريدن قتلى ، هل تعرفين ذلك ؟! انك تريدن قتلى ، هل
تعين ذلك ؟!

كانت هى ايضا تصرخ الان ثم ذهبت . سمعت خطواتها وهى
تركض الى غرفتها ثم سمعت طرقه باب البيت . ناديت سعدا
سألته عنها فقال انها خرجت ثم « ماما لماذا تعاملين سوسن بهذه
القسوة ؟ » فصرخت فيه قائلة : لا اريد ان ارى احدا ، فتركنى
وذهب فانهرت على المقعد وانفجرت في البكاء .

لا ادرى كم من الوقت مضى ولكنى انتبهت لنفسى عندما وجدت
سعدا يضع يده على كتفى ويطلب منى ان اقوم لاغسل وجهى :
ساعدنى على القيام ثم اخذنى الى الحمام محيطا كتفى بذراعه وظل
واقفا بالباب حتى غسلت وجهى وجففته . قال : « سأصنع لك
قهوة » وعندما عاد كنت ابكى من جديد . قالت اننى اريد قتلها
وانا امها التى حملتها وهنا على وهن وولادتها فى العسر وسهرت
الليالى ملهوفة ارضع واضم واحنو واربى واكبر فتقول اننى اريد

قتلها . كانت الكلمة كالسكين تطعن في قلبي . وهي ابنتي ، ابنة حشاي التي تفعل كل ذلك في . مسحت دموعي وامسكت بالتليفون واتصلت بزينب وحكيت لها وبكيت .

لازمت الفراش عدة ايام . كنت منهارة انشج بلا انقطاع كلما فكرت ان ابنتي ، اقرب الناس الي ، قد غدرت بي . « سأموت يا زينب ، لقد قتلتنى اختك بأفعالها » قالت : « بعد الشر يا ماما ، لا تقولي هذا الكلام » وبكت هي ايضا .

لم يكن الحزن وحده هو الذي يبكيني بل الشعور بالحيرة والعجز امام السؤال المعلق . كلما لاحت لي اجابة أو مخرج وجدته ينتهي بحائط يسد على الطريق ، فابكي . ماذا يقول الناس عني وعنهما تركتها أمها بلا ضابط ، تركتها تلعب بالنار حتى احترقت؟! ماذا يقولون حين يصحون يوما ليجدوا ابنة كمال صفوت وراء القضبان مع المجرمين والقتلة؟ ماذا يقولون حين يعلمون انها وهي بنت الناس تعيش بمفردها كانها مقطوعة من شجرة؟ هل ارسل لها سعدا ليعود بها ، هل اذهب انا اليها احاطلها حتى تنصرف عن عنادها وهل احسن معاملتها بعد ان اهانتنى وطعنتنى وقالت انني اريد قتلها وفضلت على اناسا سيئي السمعة؟ ماذا افعل ومن استشير وانا لا استطيع الحديث في الامر مع اقرب الاقربين ، لا استطيع ان احكي لاحد ان ابنتي تركت البيت .

يقول لي كمال انه لا داعي لهذه « المناحة » وانها ازمة عابرة تعود بعدها سوسن الي البيت فهي رغم عنادها فتاة عاقلة وسينتهي كل شيء على خير فاعجب ويتأكد لي انه الذي افسدها بتدليله . كلما قلت له ان ابنته عنيدة لابد من تلجيمها يقول اتركها ، تركتها وهامى النتيجة!

اخبرني كمال ان سوسن زارته في العيادة « ألم توبخها على فعلتها؟ » قال : « عاتبتها ولكن حديثنا كان هادئا واتفقنا ان تعود الي البيت » كان كلامه مقتضيا ، لم يشف غليلي . سألته عن البنت كيف كانت تبدو . . وجهها ، ملابسها ، حالتها ، هل سألت عني؟ ولكن كمال كان مرهقا ولم تكن به رغبة في الاستطراد في الحديث قال وهو يغير ملابسه ويدخل الفراش :

— اسمعي ياخديجة ، العقل زينة والبنت لم تمد صغيرة ، انها في الخامسة والعشرين قد تختلفين معها ، قد ترفضين سلوكها لكن ليس من الحكمة في شيء ان تبصقي في وجهها أو تضربيها .

- توقف وهو يحدث في - لم تقولى انك ضربتها وأهنتها .
كان هذا اكثر مما يحتمل . قلت بصوت عال محتدة :

- لم اقل لك ان فؤاد بيه زارنى فى المستشفى وقال انه هرف
من اصدقائه ان الدكتور عبد الموجود مراقب هو وكل من حوله وانه
قد يقبض عليهم فى اى وقت وان اسم ابنتك معسروف فى وزارة
الداخلية ، لم اقل لك ذلك كله لانى خشيت عليك . كمال انت تدل
ابنتك ، دللتها الى حد الافساد والنتيجة واضحة !

جلس كمال على السرير وأشعل سيجارة ومرت لحظات صمت
حتى بدا وكأنه سيقضى الليلة هكذا دون ان يتكلم ودون ان ينام
وأخيرا قال :

- ملعون أبو فؤاد بيه على عبد المقصود . المهم عندي هو علاقتى
بابنتى وانا غير راغب ولا مستعد ان افسد علاقتى بها مهما كان
السبب .

- ولكنك بهذا الاسلوب تشجعها على التمادى فى الخطأ .

- انها ابنتك ياخديجة وانت تعرفينها ورايت بعينك عندما
قلت لها نحن ام هم تركت لك البيت . مادامت هذه هى ابنتنا
فدعينا من هذه المواقف العاصفة ولنتقبل البنت كما هى !

قفزت من السرير وبدأت تصرخ فى وجه كمال واقول له انه فقد
عقله وانه يقصر فى واجبه كاب مسئول عن حماية ابنته . ما قلته
كلام فارغ ، استسهال .. قلت وانا احدثق فى وجهه :

- انا ياكمال لا استسهل ولا اهمل فى تربية اولادى ساتصرف
وسأربيهما بالهدوء او بالعنف وتكنى سأربيهما ، فى كل الحالات !

هل هو الاطمئنان الى ان سوسن ستعود الى البيت ام الاحساس
بسلبية كمال وضرورة اضطلاعى بالمسئولية ، لا ادرى أيهما ولكنى
بعد هذه المواجهة العاصفة كنفثت عن البكاء نهائيا وفى صباح اليوم
التالى وأصلت حياتى العادية وعدت الى العمل بالمستشفى .

وعندما عادت سوسن الى البيت لم اكلمها . كنت أريدها ان
تعرف اننى غاضبة وانها اخطأت واننى اعاقبها . كنت اتحساشى
الانفراد بها واعدت عندما اتحدث مع زينب او سعد أن المح للفسد
ونكران الجميل والقسوة التى يمكن أن يتعامل بها الاولاد مع
أهلهم . الاحظ امتناع وجهها فأقول ليست غبية ولا محتجرة انها
تتلقى الدرس وتتعلم !

فاجأني كمال بتذكري سفر الى أوروبا بمناسبة العيد الثلاثين
لزواجنا . فرحت كثيرا بالمفاجأة .

صحبنا الاولاد الى المطار وهمس كمال في أذني ونحن نودعهم
« لقد كنت صارمة مع سوسن بما يكفي . . دعينا نساغر الآن والكل
في وثام ، لاجل خاطري ! » اجتضنت خديجة وكريم وقلت زينب
وسعدا ومجدي وسلمت على سوسن ، لم أقبلها .

حملتنا الطائرة السويسرية الى مطار زيورخ الذي قضينا فيه
ساعة ثم ركبنا طائرة أخرى الى جنيف وبعدها أوصلتنا سيارة أجرة
الى الفندق . دخلنا يتبعنا أحد العاملين يحمل حقبتنا . سألتني كمال
« ما رأيك ؟ » كان المكان لائقا تماما . بهو رحب يغطي أرضيته من
الجدار الى الجدار بساط رمادي به تشكيلات زرقاء وتضيئه ثريات
ضخمة من البللور الثمين . أعطى موظف الاستقبال مفتاح الحجرة
لكمال فصعدنا .

فتحنا الباب على حجرة فسيحة أنيقة الأثاث لها واجهة زجاجية
تفضي الى شرفة تطل على بحيرة لي مان . دخل كمال الحمام ووقفت في
الشرفة أتأمل ماء البحيرة والمراكب السابحة فيها والنوارس . ثلاثون
سنة مرت على زواجنا ، فكيف مرت ؟ يقولون « ما الذي تغيره
ياخديجة للاحتفاظ بنضارتك ؟ » يضحكون « انك كالتقط تاكلين السنين
وتنكرينها » فأضحك وأقول « أنا في السادسة والاربعين ، لا أنكر .
وحفيدتي خديجة في الثالثة عشرة وبعد عامين أو ثلاثة أزوجها وأحمل
بين ذراعي أبنائها ! » ثلاثون عاما مروا ولكن المدينة تعيد الايام حية
وحاضرة كأنها لم تمض . البنت الصغيرة وقد عادت بلا ضفائر تركز
مع عريسها ، تركض وراءه وتلث انبهارا من حديثه ومعارفه ومداعباته
حدثت في الصفحة الزرقاء المتوجة فانبعثت الصغيرة التي كنتها فرحت
أرائبها وأبتسم ، ابتسم كأنني أشاهد ابنتي أو حفيدتي صغيرة تشبه
في الحب كأنما غطتها فجأة موجة عالية ثم أطلت براسها منها موزعة
بين الدوار ونشوة اللعب ، مبتللة متهيجة وطفلة .

يقول كمال اني في الحب ملكة فأضحك ولا أقول له انه لم يعد في
الحب ملكا . انه في الثانية والستين ولكنه طيب يحنو على ويعطيني

كل ما أريد ولا يقول لي ابدا : لا . خرج من الحمام وناداني فدخلت
أنا لاستحم حمام فسيح وجميل وبه مرآة تغطي حائطا بأكمله .
تحملت بالماء الساخن دون أن أبلل شعري وعندما انتهيت وقفت أمام
المرآة لاأنشف . ليس صحيحا اننى آكل السنوات بالبطن شيء من
ترهل وبالثديين أيضا . ولكن هكذا ، لففت جسدى بالمنشفة الكبيرة ،
لا يبدو شيء من ذلك ، الجسد متماسك وامتلاؤه محبب . جلست أمام
المرآة كحلت عيني وصبغت شفتي بجمرة قانية وتعطرت وصفت
شعري ثم لبست ثوبا زيتونيا . قال كمال « تبدين كمسروس ! »
ضحكت ونزلنا للعشاء .

اقضى معظم النهار في زيارة مجلات الملابس ، أحب الفرجة وأحب
الشراء . وبعد الظهر نتمشى على البحيرة ونتناول العشاء في مطعم
مختلف كل ليلة . يسحرني هدوء المدينة ونظافتها . أقول لكمسال
« لماذا لم يخلق الله مصر بهذا الجمال !؟ » فيجيبني مبتسما « ارادة
ربنا ! » أقول « أحيانا تخطر لي فكرة مجنونة .. أن نركب للمستشفى
عجلا وندفع به هكذا كما هو الى شساطي ليمان .. وآتى بالاولاد
ونستقر هنا فيقهه كمال « فعلا فكرة مجنونة ! »

« خديجة محظوظة » قلت لكمال وأنا أريه الثوب الذى اشتريته
لها . ثوب من المخمل الثمين كحلي اللون يحيط بخصره حزام من الحرير
اللامع ، كحلي بنفس لون الثوب وله ياقة من الدانتيل المشغولة يدويا
من خيوط دقيقة بيضاء . « انه غالى الثمن ، ولكنه جميل يليق
بالاميرات ! » فردت أمام كمال كل مشترياتي الاخرى : ثوب لزينب ،
آخر لراندا ، سترة لسعد ، ربطة عنق لمجدى ولعبة لكريم . قال
« وسوسن » قلت « لم أجد شيئا يناسبها ! »

قضينا عشرة أيام فى جنيف ثم ركبنا القطار السريع الى باريس .
بعد أربع ساعات وصلنا العاصمة الفرنسية ونزلنا فى فندق
بالشانزليزيه يفوق الفندق الذى أقمنا فيه فى جنيف فخامة وثراء .
باريس جميلة ومبهجة ولقد حلمت دائما بزيارتها . أحب المشى فى
الشوارع التجارية وأحب المشاهدة ولكن المشى الكثير يرهق كمال
فنضطر للجلوس بأحد المقاهى وأحيانا نأخذ سيارة أجرة ونعود مباشرة
للفندق لذلك أفضل أن اتركه بالفندق وانزل وحدى لكى أمشى كما
يحلو لى . لحسن الحظ أن لكمال أصدقاء فى باريس يأتون إلينا أو
نذهب إليهم .

عدت من السوق فوجدت رسالة من كمال يقول لى فيها انه ذهب
لشراء الجرائد ويطلب منى أن أنتظره « الامر هام . أرجو عدم الخروج

ثانية « صعدت الى الحجرة ووضعت اكياس المشستريات على الدريو وغسلت يدي ووجهي ثم طلبت فنجان قهوة وجلست ادخن وانتظر . ترى ما هو الامر الهام ؟ من المؤكد انه لا يتعلق بالاولاد والا لما ذهب لشراء الجرائد وبقي ينتظرنى فى الفندق . تاخر كمال ، لماذا تاخر ؟ هل اصاب سوسن مكروه ؟ تركت الغرفة ونزلت الى الاستقبال ، انتظرت قليلا ثم تركت خبرا اننى فى المقهى . جلست بحيث ارى الداخل .

رأيتة قادمًا وكانت الجرائد بيده . من وجهه عرفت أن شيئًا ما حدث فقميت اليه . أخبرني أن أحد معارفه كان يزوره وقال له ان الدنيا فى مصر « قايمه » وان السادات أصدر قرارات اعتقال شملت الآلاف بينهم جماعات اسلامية ورجال دين مسيحي وشيوعيون وناصريون ووفديون . قال « كل ذلك حدث منذ أكثر من أسبوع ولاننا لا نقرأ جرائد ، لم نعرف » .

– ولماذا لم تتصل بالقاهرة ؟

– قلت اشترى الجرائد لاعرف التفاصيل لانه ما دام الوضع كذلك

فقد لانستطيع الاستفسار عن الامر بشكل مباشر عبر التليفون .

– أى أمر وأى استفسار نحن نريد الاطمئنان على الاولاد . فقط ! لا علاقة لنا بالسياسة ولا بالجماعات الاسلامية او المسيحية او المفاريت الزرق ! الاولاد كل ما يهمنا ، سأذهب للاتصال .

كنت نافذة الصبر وحادة ، وقلقة على سوسن .

– انتظرى دقيقة ساتى معك .

طلبت من موظف الاستقبال أن يطلب لنا القاهرة « سنكون

بالحجرة » جاءتنا المكالمة وكانت سوسن هى التى ردت علينا فاطمأنت سألتها عن اخوتها فقالت انهم بخير فأعطيت التليفون لكمال .

كمال عاطفى . أرى الدهوع فى عينيه وهو يتحدث مع سوسن بالتليفون . ثم يسأل عن سعد ويكلمه ثم أكلمه ونضع السماعة .

اشعلت سيجارة وقلت لكمال أن صديقه هذا أهوج لانه أقلقنا بلا داع . عندما رأيتك تدخل من باب المقهى فكرت ان أحد الاولاد اصيب

فى حادث أو أن حريقا شب فى المستشفى . الحمد لله حصل خير ! ولكن كمال ظل قلقًا وازداد قلقه عندما حمل له أحد أصدقائه

جرائد الايام السابقة الصادرة فى مصر والمنشور فيها القرارات الجمهورية بالاعتقالات ونقل الصحفيين وأساتذة الجامعة قال :

– أنظرى انها قائمة بأسماء ١٥٣١ شخصا كلهم اعتقلوا .

– هل تعرف أحدا منهم ؟

- شخصيا لا . لكن العديد منهم شخصيات عامة ومعروفة . هذا اجراء خطير سيسبب للسادات مشاكل وربما لنا نحن ايضا .
- انت تباليخ يا كمال ! لقد زادت المعارضة وهو يصفى حساباته معها اما نحن فليس لنا لا فى الثور ولا فى الطحين . لا علاقة لنا بالسياسة .

- ما حدث خطير .
- ليس خطيرا . انسى كل ذلك الان واستمتع باجازتك .
واخذت منه الجرائد ومزقتها ورميتها فى سلة المهملات وقلت له اننى اريد ان اقضى سهرة فى «المولان روج» فضحك وقال : « سيدهب ثمن التذكرة فى الهواء . ستقومين من نصف المعرض وتقولين انه بذىء » قلت وانا اضحك « هذه المرة سأتشجع وأنجمل المعرض حتى نهايته فى مقابل ما دفعناه ! » فضحك .

باريس كعبة الدنيا ، مدينة النور بحق ، كالعروس فهارا وليلا . واجهات المحلات ، السلع الثمينة ، المقاهى الانيقة ، الفنادق الفخمة الملاهى كلها تتللا وتملا القلب بهجة . اتمنى لو كان كمال اصفر سنا ، لو كان عفا قادرا على مواكبة خطوتي يحيط كنى بذراعه ونسير فى الشوارع معا كأننا فى مقتبل العمر .

فى طريق عودتنا الى القاهرة حملنا القطار السريع من باريس الى جنيف حيث أمضينا الليلة وفى الصباح توجهنا الى المطار وكان الطقس باردا والمطر غزيرا . قلت لكمال « تشبعت شعرى من البلل والرطوبة ساصل القاهرة فى صورة غير لائقة ! » تمنيت أن يتسع لى الوقت فى المطار لتصفيف شعرى فى محل التجميل الذى رأته فى المطار عنه وصولى ولكنه لم يتسع .

وصلنا المطار قبل اقلاع الطائرة بأقل من ساعة ، سلمنا حقائبنا واشترى كمال بعض الجرائد والمجلات ثم نادوا على ركاب الطائرة السويسرية المتجهة الى اثينا والقاهرة ، أقلمت الطائرة فى موعدها وقال كمال وهو ينظر فى ساعته « ان وصلت الطائرة الى اثينا واقلمت منها فى الوقت المحدد نبلغ القاهرة فى الثالثة بعد الظهر » . تصورت كل الاولاد فى انتظارنا رأيت نفسى وانا وكمال نخرج من صالة المسافرين ندفع امامنا حاملة الامتعة ثم نلمح الاولاد من وراء الزجاج الفاصل ونخرج اليهم ونعانقهم . سألنى كمال : « لماذا تضحكين ؟ » . قلت : « سعيدة بقاء الاولاد ! » .

بعد ساعتين ونصف حطت الطائرة فى مطار اثينا واعلنت المضيغة ان على جميع الركاب مغادرة الطائرة بما فى ذلك الركاب

المتجهين الى القاهرة . فلما استعلمنا عن الامر قيل لنا ان هناك تأخيرا
فى موعد الاقلاع . فكرت ونحن ننزل الى المطار انه بإمكانى لو كان
علينا أن ننتظر أكثر من ساعة أن أصفف شعرى حتى يبدو لائقا .
وجدت مطار أثينا مختلفا عن المطارات السويسرية ، بدا لى أقل
رونقا وجمالا . فقلت ملحوظتى لكمال فعلق مبتسما « كلما اتجهت
شرقا وجنوبا شحب الضوء ! » قلت وأنا أهز رأسى موافقة « صحيح ! »
بحثت عن محل لتصفيف الشعر فلم أجد . أسفت لذلك ودخلت الى
دورة المياه لاصلاح هينتى بالقدر الممكن .

طال انتظارنا . قيل لنا ان مطار القاهرة مفلق ولكنهم
لم يقولوا لنا السبب . حاولنا الاتصال تليفونيا ولم نفلح . ثم
وصلت الى أثينا طائرتان احدهما قادمة من العراق والاخرى من ليبيا
فامتلا المطار بركاب مصريين ، اوضح لى كمال .

- انهم من العمال والفلاحين المصريين الذين يعملون فى الدول
العربية ولان الطيران المباشر بين مصر وهذه الدول متوقف بسبب
ما بينها من خلافات سياسية فانهم يركبون الى اثينا ومنها الى القاهرة
غريب !

- فعلا غريب ان يسافروا من ليبيا الى مصر عبر اليونان فيطروا
شمالا ثم جنوبا مرة اخرى .

- لم أقصد ذلك ، أقصد شكلهم غريب .
- قلت لك أنهم أناس فقراء سافروا بحثا عن لقمة الخبز .
كانوا الآن يملئون المطار ، رجال بالجلابيب البلدية او البدل
القديمة ونساء ريفيات او من قاع المدن فى ذيل كل واحدة
طفلان أو ثلاثة منهم من يبكي ومنهم من يضسحك ومنهم من يركض
بصخب ومنهم من أخرجت أمه ثديها وراحت ترضعه هكذا علنا وسط
المطار ، غريب !

نهنتى كمال أننى ادخن أكثر مما يجب وقال « لا تقلقى ربما كانت
عاصفة رملية أدت الى اغلاق المطار فى القاهرة » .

قمت الى دورة المياه وكنت أغمسل يدى بعد قضاء حاجتى عندما
دخلت امرأة تلبس ثوبا نيليا أزرق ويتدللى من أذنها قرط ذهبى على
شكل مخروطة من ذلك النوع الشائع فى أرياف مصر وتربط رأسها
بمنديل وكان معها طفل صغير . تطلعت المرأة فى وجهى وسألت :

- حضرتك ، من مصر ؟

فأومأت لها برأسى . قالت :

- يعنى بتتكلمى عربى ؟

- نعم .

مدت لى المرأة يدها بحماس لمصافحتى .

- أهلا وسهلا . . وحضرتك مسافرة من مصر أو راجعة لها ؟

- راجعة .

- والافندى بيشتغل فى الخارج ؟

قلت بتحفظ :

- لا .

قالت وكانها لم تلاحظ انى أريد أن أذهب :

- أبو عيالى يشتغل فى العراق وأنا وهو والعيسال راجعين مصر

أجازة . وصلنا من ساعة وبيقولوا الطيارات واقفة والمطار مقفل لان

السادات انضرب بالنار !

- السادات 19

- انضرب بالنار - قالت المرأة وهى تنحنى على طفلها وتنزع عنه

ملابسه المتسخة - الرجالة سمعوا فى الراديوهاات انه وهو قاعد فى

وسط الحكومة والبهوات والعسكر والحراس لابس المنصب والمذمب

طلع عليه عسكري قال له « جالك الموت ، خد ! » وضربه بالرصاص

السادات مال وانكفى ، مات ماماتش ؟ لسه الخير ما وصلش !

راعنى كلام المرأة كما راعنى ذلك الهدوء الذى كانت تتحدث به

وهى تمسح لطفلها مؤخرته وتفلسها وتلبسه ملابس نظيفة . تركتها

وعرولت الى كمال لابلغه بما سمعت فامتقع وجهه وسأل :

- انقلاب ؟

- لا أدرى

- لم تخبرك بأى شىء غير ذلك ؟

-

بحشنا عن تليفون بالمطار لعلنا نتمكن من مشاهدة نشرة اخبارية

ولما وجدناه لم نجد أى برنامج اخبارى . ساعتها اقترح كسأل أن

نسال أحد الشباب المصريين الذين يحملون معهم أجهزة راديو

وفعلنا . أكد الشاب ما سمعته وقال ان السادات أطلق عليه النار

فعلا أثناء مشاهدته العرض العسكري المقام بمناسبة السادس من

أكتوبر . وقال ان الاذاعات الاجنبية والعربية أذاعت الخبر كما أذاعت

انه منذ نقل السادات الى المستشفى فى الواحدة ظهرا لم يعلن جديد

ويتردد كلام انه أصيب فى يده وكلام اخر انه قتل .

فى السادسة الا خمس دقائق عدنا للجلوس بجوار الشباب

ولاحظت ان كل المصريين قد تحلقوا فى مجموعات حول من يحملون
اجهزة راديو . قال رجل نحيل له وجه متفطن وشارب فضى كث:
- لو لم يمت السادات ستكون مصيبة لانه سيبطش بمعارضيه
- يبطش أكثر من ذلك ؟

قالها شاب باستنكار واضح . فاجابه الرجل النحيل :
- نعم سيبطش اكثر . . . سيصبح فى المسألة أحكام بالاعدام
والمؤبد . ستتحول الى ثار شخصى . . . « حاولوا قتلى اذن سأجعلهم
يدفعون الثمن غاليا ! »
- لا أظن .

قالها أحد الرجال الجالسين مت دخلا لاول مرة فى الحديث . . .
وعاد يكرر « لا أظن » ولم أفهم ماذا كان يقصد بالضبط وتمتم شخص
رابع :

- ربنا يستر !
دقت الساعة معلنة السادسة ولثوان خيم على المكان صمت
مطبق وأصغنا السمع ثم أعلن المذيع « تأكد الان أن الرئيس المصرى
مهجد أنور السادات قد توفى اثر حادث الاغتيال الذى تعرض له ظهر
اليوم وقد صدر فى مصر البيان التالى . . . »
لم أكن قنا أفقت من الصدمة عندما سمعت زغرودة مجلجلة .
كانت امرأة متوسطة العمر تلبس نظارة طبية وتحيط رأسها بظفيرتين
سميكتين هى التى تزغرد وتردد بانفعال انه راح وانتهى . ورغم زغاريدها
فقد كانت الدموع تسيل من عينيها فرجحت أنها مجنونة ثم سمعت
امرأة تلبس جلبابا ريفيا أسود تنادى عليها من موقعها وسط مجموعة
متحلقة حول مذيع اخر :

- يا ست يالى بتزغردى الشماتة فى الموت حرام . مات « الله
يرحمه » افترى فى العباد . . . له رب يحاسبه ويتولاه .
ولكن المرأة المجنونة كانت تكرر انه راح واخذ معه الايام السوداء وكانت
تبكى . كان الجميع يتحدثون الان مع بعضهم البعض ومع انفسهم والصق
الشباب الذين يحملون راديو اذانهم بالاجهزة التى معهم لعلهم يلتقون
تفاصيل اخرى ينقلونها لمن حولهم .

سحبنى كمال من يدى وانتحى بى جانباً وهمس فى اذنى :
« هذا ما كنت أخشاه ، ربنا يستر ! » فحدقت فيه مستفهمة . كنت
مضطربة الى حد عدم الفهم وشعرت بتعب شديد يتملكنى ورغبة ملحة
فى العودة الى بيتى والنوم فى سريرى .
طلبت من كمال سيجارة وكان لا يدخن الا نادراً . كان مقطب

الوجه يبدو عليه القلق الشديد أما أنا فكانت افكر في السادات المسكين وتذكرته حين أتى لزيارة ابنته في المستشفى وشرب القهوة معنا . تذكرت النظرة الحانية في عينيه وهو يودع ابنته وتذكرت زوجته فطفرت الدمعة من عيني وأخرجت منديلا من حقيبتي وتمحطت قال كمال « قلت لك ان الامر لن يمر بسلام . كان تصرفه الاخير حماقة ، مقامرة مجنونة قد نضطر نحن لدفع ثمنها ! » لم أفهم شيئا مما يقوله ولكنه كان يضرب كفا بكف ويتمتم « ربنا يستر ! »
لم ينادوا علينا لركوب الطائرة قبل أربع ساعات . في الاتوبيس الذي حملنا الى الطائرة كان الركاب يثرثرون بشكل عادي كأن شيئا لم يحدث أما في الطائرة فقد لفهم الصمت . كانت رحلة قصيرة استغرقت أقل من ساعتين .

في مطار القاهرة بدا كل شيء عاديا . قام رجال الشرطة باجراءات الدخول المعتادة ولكننا عندما خرجنا الى المدينة وجدناها ساكنة تماما ولم يكن في الشوارع سوى أفراد من القوات المسلحة وحرس المنشآت . وقال كمال « يبدو أن هناك حظر تجول » وكان ذلك صحيحا لانهم ، أوقفونا في الطريق ولما رأوا جوازي السفر عليهما أختام الوصول سمحوا لنا بالمرور .

وأخيرا وصلنا الى البيت وما أن أدار كمال المفتاح في الباب حتى سمعت سعدا يهتف : « وصلوا ! » كانوا جميعا بانتظارنا : زينب وسوسن وسعد ومجدى والصفيران . التفوا حولنا نتبادل القبلات وقالت سوسن وهي تضحك : « الآن آتى لكم بالشربات » وضحكت ولم أفهم ما تقصده الا عندما أوضحت زينب أن سوسن مقبضة لموت السادات . فكرت في توبيخها ولكني عدلت « لا داعي لخلق توتر جديد بيننا » للاولاد وأنا أضحك : « لولا تأخيرنا في مطار اثينا لكان كل شيء رائع .. كانت رحلة العمر .. تعالوا أريكم الهدايا التي أحضرتها لكم ! » .

الحمد لله لم يحدث شيء . بعد حادث اغتيال السادات كان كمال متوجسا يتابع الاخبار بشكل يومي ليعرف الى أين تتجه سياسات الحكومة . لم أكن أرى داعيا لقلقه فما دخلنا نحن بمصر رئيس يرحل واخر يجيء ؟ لا علاقة لنا بالسياسة ولم يكن لنا علاقة بها في أى وقت فلماذا القلق إذن ؟! ولكن كمال كان قلقا .

لم يحدث شيء . المستشفى يزدهر . كل صغيرة وكبيرة فيه كما يجب ويليق . نظامه في دقة الساعة ، نظافته مضرب الامثال ، تطور أجهزته بلا منافس ، طاقم أطبائه هو الإكفأ في البلد . « نموذج للمشروع الاقتصادي الناجح » هذا ما يقوله الناس ويعلق كمال : « خديجة وراء كل ذلك ! » فأجيبه بأنه يبالغ .

المستشفى هو كل شيء . استغرب انه كانت لي حياة سابقة على وجوده وأفزع لفكرة أن أكون ولا يكون كأننى لبلابة تنمو وتتفرع على جداره الهائل ، أعطيه كل شيء . وهو يعطى حياتى الحياة فما الذى كان يصيبنى لو لم يكن هناك ؟! زينب مشغلة بزوجها والصغيرين وسوسن غائبة ولا تحمل فى حضورها سوى النكد والغم وسعد ركب رأسه وأصر على العمل فى الاسكندرية بعد تخرجه . قلت لأبيه : « أقتعه ، أضغط عليه ، قل له ان ذهب تكون غاضبا عليه ولكن كمال كعادته مع الاولاد يتركهم يفعلون ما يشاءون حتى لو كان ذلك فى غير صالحهم . أخذ سعد عروسه وذهب الى الاسكندرية للعمل والاقامة وكمال بدأ ينسحب تدريجيا ليس فقط من العمل فى المستشفى بل ومن الحياة العامة أيضا فهو لا يفضل قبول الدعوات على العشاء وحفلات الاستقبال ولا يذهب الى المستشفى الا مرتين فى الاسبوع ، مرة لاجراء جراحات وأخرى لعيادة مرضاه . وأعرف أنه يشعر بالملل لجلوسه منفردا فى البيت طوال اليوم فأنا أمضى النهار فى المستشفى من الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر وأشجعه على الخروج كل صباح ليجلس فى حديقة جروبى أو مقهى فندق شسبرد وأعرض عليه أن أترك له السيارة والسائق فيقول انه يفضل أن يمضى ما دامت المسافات قصيرة لان ذلك يفيدته ويساعده على قطع الوقت .

تقدم العمر بكمال فلم يعد يأكل ولا ينام كما كان يفعل فى

الماضى ، لقمتان ويقول شبيعت . ساعات قليلة ينامها ثم يصحو مع الفجر فى الغالب وعندما استيقظ أجد شرب الشاي وقرأ الصحف كلها . كمال يخطو فى شيخوخته وحيدا والاولاد يخذلون . زينب أفضلهم لانها الاقرب والاكثر سؤالا عن أبيها وعنى . أما سعد فقد ترك أباه لبعيش فى الاسكندرية لمجرد عناد أحق وسخيف . قال أبوه « اتركه أنها مرحلة وتمر » ولكنى لا أصدق له لان هذا هو بالضبط ما قاله عن سوسن ولكنها لم تمر وبقيت البنت على حالها وكان من الاجدى الامساك بزمامها بقوة وحزم ما دامت طبيعتها جامحة فى الخطأ . الان فات الوقت وأفلتت البنت وكان الذى كان . عندما أعلنت انها سوف تستقل بحياتها وتقيم بمفردها كان الكيل قد فاض فقلت لها « افعلى ما بدالك أنت حرة ولكن اعلمى اننى لست راضية عما تفعلين . اسقطتك من حسابى ولم اعد اهتم ! » وعندما حكيت لكمال قال لى ان كلامى شديد القسوة وأن البنت لابد وانها تألمت ألما شديدا فقلت له أنها طائشة ومجنونة ولا يؤثر فيها شيء « هل تتصور انها أنصتت لما أقول ؟! انها لا تسمع الا ما فى رأسها! » هذه البنت مشكلة بلا حل فكيف أجد لها حلا ؟ كادت تبلغ الثلاثين ولم تتزوج . . لماذا ؟ لا أفهم كلما اخترت لها عريسا سخرت ليس فقط منه بل ومن الفكرة ذاتها فهل تدخل الدير وتصبح راهبة ؟! ليست كباقي البنات تريد رجلا تحبه وتسكن اليه وتملا عليه بيته بالاطفال ؟ ولكنها لا تفكر بهذا الشكل . . فكيف تفكر وما الذى تريده ؟ أبوها لا يوافق على ما تفعله ولكنه يجد لها الاعذار والمبررات وينهى أية مناقشة بيننا بشأنها بنفس العبارات : « دعها ، هذه حياتها ومن حقها أن تفعل بها ما تريد ! » كمال هو السبب ، هو الذى حال دون أن ألجم هذه البنت وأشد اللجام بما يناسب طبيعتها وطموحها الآن تأخر الوقت فهل فشلت فى تربية اولادى أم ان الاولاد همكنا يكبرون يركبهم عنادهم ويجنحون بعيدا عن أمهم التى أنبتتهم وعاشت سنوات عمرها ترعى وتكبر وعيناها وروحها متعلقة بفروعهم النامية ؟ قد أكون فشلت فى تربيتهم . .

فى المستشفى لم أفضل . يطلقون على « الملكة » يقولون « جاءت الملكة » « ذهبت الملكة » « قالت الملكة » حين سمعت بذلك للمرة الاولى استغربت وضحكت وبدت لى المسألة طريفة ولكنى الان اعتمدت الاسم وهو يملؤنى اعتزازا لاني اعرف ان وراءه تقدير الاطباء والعاملين بالمستشفى لما أقوم به من جهد يجعل المكان شبيها بمملكة فاضيلة يحكمها النظام والدقة والكفاءة تماما كما يجب ويليق .

الجزء الثانى

سوسن

-١-

انه عيد ميلادها الخمسين وكلى رغبة فى اسعادها . ساتحتم
واعتنى بتصفيف شعرى والبس ثوب المناسبات واشترى حذاء جديد
فتعرف اننى اهتم ويسعدنا ذلك .

رائقتنى صديقتى سميرة الى السوق وتاملنا معا الواجهات
الزجاجية لمجلات الاحذية . اشارت سميرة الى حذاء اسود لامع مقدمته
مصنوعة من سيور جلدية دقيقة متداخلة :
- ما رأيك ؟

- جميل لولا كعبه .

كان للحذاء كعب منبب رفيع يرتفع عن الارض مالا يقل عن
سبعة سنتيمترات .

- لن ترتديه كل يوم ، انه حذاء للمناسبات !

- ساتعز فى المشى به !

- بالعكس ، سوف يجولك الى امرأة محترمة ، تمشى ببطء
انثوى وتحوذ على رضا « البهوات » وتجلس بينهم بكل ثقة كأنها
واحدة منهم ! ورغم أنها كانت تضحك فقد جذبتنى باتجاه باب المحل
فدخلنا وطلبنا الحذاء . قسته فوجدته ضاعطا على قدمى ولكن البائع
أكد أن المقاس مناسب : « أيام قليلة ويلين ويصبح مريحا » ابقيته
فى قدمى ودفعت ثمنه ثم بحثنا عن هديتين مناسبتين لأمى وخديجة
ابنة زينب لان الاحتفال كان بمناسبة عيد ميلاد الاثنتين . بعدهما
تركنتى سميرة وتوجهت أنا الى منزل أهلى .

القيت نظرة مطمئنة على حداثى الجديد ثم ضفطت على
الجرس . فتح الباب خادم لا أعرفه قال : « تفضلى البهوات
فى الصالون » دخلت فوجدت أن زينب وخديجة جالستان وحدهما
فى كامل زينتهما . تبادلنا السلام والقبلات وقدمت الهديتين .

كانت أسى تلبس ثوبا حريريا فى لون خشب الورد يكشف عن
نحرها وذراعها ويلف جسدها ويكسسه وتزين بالماس : عقد على
جيدها وقرط فى أذنيها وخاتم فى بنصرها الايمن ثم جاء أبى وكان
كعنده فى الشهور الاخيرة يتكىء على عصاه ولاحظت أنه ازداد شحوبا
ونحولا . دخل رجلان وامرأتان لا أعرفهما ثم لحق بهم آخرون وامتلأت
المقاعد بالضيوف . نساء فى ملابس السهرة تصوح منهن روائح

الخطور ورجال في حبل داكنة وقمصان بيضاء وربطات عنق نقشها
 رزين . النساء يرتدين أحذية سوداء لامعة لها كعوب رفيعة كالخذاء
 الذي بقدمي لكن الخذاء الذي بقدمي كان يؤلمني ألما حقيقيا فهل كانت
 أحذيتي أيضا تؤلم ؟! شعرت بالارهاق والوحشة بحثت عن أمي
 وزينب فوجدتهما في حجرة المائدة فسألتهما ان كانتا تريدان مساعدة
 فقلنا انهما لا تريدان ، تركتهما . دخلت الحمام وخلعت الخذاء .
 كان الاحتكاك المستمر بجلدي قد ألهب عرقوب القدم ومفصل الاصبع
 الكبير الذي بدت عليه حزوز حمراء كأنه جرح بسكين . دفعت بقطعة
 صغيرة من القطن داخل كل فردة لتحمي جلدي المتهب وأدخلت قدمي ،
 بات المشيء مستحيلا . خلعت الخذاء وبحثت عن شيء أضعه في قدمي
 فوجدت « شيشب » مصنوعا من المطاط ارتديته وعدت به الى الصالون
 لاحظت زينب الامر في الحال فهتفت في استنكار :

- أين حذاءك ؟

- لقد اشتريته اليوم وهو ضيق وجلده قاس .

- ولكن هذا شيشب الشغالة !

لم نواصل لان أمي جاءت تدعو الضيوف الى مائدة العشاء
 ووجدت نفسي غير راغبة في الطعام أتناهب بقوة وبجي رغبة في النوم .
 تركت الصالون ودخلت الحجرة التي كانت لي ولزينب وألقيت بنفسي
 على أحد السريرين ورحت في النوم .

عندما غادرت بيت أهلي لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة
 والنصف صباحا . سرت على أطراف أصابعي وأغلقت الباب خلفي في
 هدوء حتى لا أوقظ أحدا . كان الميدان خاليا الا من بائع الحليب يدق
 جرس دراجته وامرأة تهوول وبدا التمثال في تلك الساعة المبكرة
 من الصباح اليقا تماما كما كان أيام طفولتنا .

أنا وزينب ننزل كل صباح للذهاب الى المدرسة . نقف أمام
 بوابة البيت نثرثر ونقضم « الساندويتشات » وننتظر ثم نسمع
 صوت موتور الاتوبيس فنلتفت باتجاه شارع قصر النيل ونجده قادما
 نحمل حقائبنا المدرسية الثقيلة ونستعد . عندما يتوقف نضع
 ونقول بصوت واحد تقريبا « صباح الخير » ثم نجلس متجاورتين .
 في الصغر كنا ننام في نفس السرير ولا نلعب الا معا وعندما كبرنا
 بعض الشيء صار لنا سريران متجاوران ومكتبان صغيران متلاصقان .
 نستيقظ معا في الصباح ومعا ندخل الحمام ، احدانا نجلس للقضاء
 حاجتها والاخرى تغسل وجهها وتفرش أسنانها . نرتدى ملابسنا
 في نفس الوقت وفي نفس الوقت ننزل . درسنا على أيدي نفس

المدرسات وقرأنا ذات المقررات فلماذا أصبحت زينب هي زينب
وأصبحت أنا سوسن ٠٠ وفي أى لحظة من حياتنا تفرغ مجرى
العمرين ؟

ضبطت نفسي أتأملها بعين المشاهد الغريب وهي أختي التي
كنت أسر إليها بكل أشيائي الصغيرة التي لا أجرؤ على قولها لسواها
والتي كنت حين أرى حلما مفزعا أوقفها لاسرح لها بخوفي ، تهدئي
وتحتضني فأنام بجوارها مطمئنة . ضبطت نفسي أنظر إليها نظرة
الغريب الى الغريب . كيف بدأ الامر . كيف تراكم ؟ وهل الاختلاف
يأتى بالوحشة ؟ وما الذى يباعد بين مجرى ومجرى ؟

« اسمى سوسن كمال الدين صفوت وعنوانى ١ ميدان مصطفى
كامل الدور الثامن شقة ٨٢ » لو وضعت يا ماما وقلت للناس اسمى
والعنوان ألا يعيدونى اليك ؟ « كنت فى الرابعة من عمري وربما حتى
فى الثالثة . كان اسم الميدان تماما كالميدان نفسه والتمثال الذى
يتوسطه والعمارة التى تطل عليه ونسكنها لا تعنى لى سوى الالفة
والامان : عنوان البيت .

وفى يوم كنا ننتظر سيارة المدرسة ، ما الذى جعلنا نعب لنلعب
حول التمثال ؟ ربما كنا نلعب لعبة القط والفار : أختفى خلف التمثال
وتحاول زينب الامساك بى . ساعتها رأيت الكتابة . حاولت قراءتها
ولم أفلح فطلبت منها أن تفعل . كانت فى السنة الرابعة الابتدائية
وتحسن القراءة ، قرأت : « مصطفى كامل باشا ١٨٧٤ - ١٩٠٨ »
وعلى الجانب الايمن : « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع
الحياة » ومن الجهة اليسرى « ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو
مرة يبقى ابد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » وعلى ظهر
التمثال : « اکتبت الامة بجميع طبقاتها فى صنع هذا التمثال سنة
١٩١٠ وفى سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة اقامته فى هذا الميدان تمجيذا
للمذكرى قرأت زينب كل ذلك ولم أفهم سوى انه كلام مبهم عن مصر
التي نغنى لها كل صباح ساعة رفع العلم فى المدرسة . سألت زينب
فقالته أنها لم تفهم شيئا ثم سمعنا صوت موتور سيارة المدرسة
فقالته باحتجاج : « أضعنا الوقت فى قراءة كلام لا نفهمه ، جاء
الاتوبيس ولم نلعب ! » .

ثم نسيت الامر أو بدالى اننى نسيت حتى رأيت ذلك الفيلم فى
التليفزيون . كنت أحب مشاهدة الافلام العربية بكل أنواعها الافلام
المضحكة التى يتنكر فيها البطل فى ثوب امرأة والافلام المحزنة التى
تبكى فيها البطلة المظلومة بصوت متهدج وهى تكرر أن الله هو المنتقم

وأفلام المغامرات التي يتعارك فيها الطيب والشرير ويحطمان كراسي
المقهى على رؤوس الرواد والافلام العاطفية التي يعنى فيها الحبيبان
عن الحب والعصافير . فى ذلك اليوم طلبت من زينب أن تقرأ فى
الجريدة اسم الفيلم الذى سيذاع عصرا فى التليفزيون فقالت
« مصطفى كامل » وتأففت : « لن نضحك ولن نسمع أغاني ولن نفهم
شيئا ! » ولكننا ما أن عدنا من المدرسة بعد ظهر الخميس وبدلنا
ملابسنا وأكلنا حتى بدأنا ننتظر موعد عرض الفيلم .

شاهدنا الشباب الوسيم الذى كان اسمه مصطفى كامل وتابعنا
حكايته ورنه صوته وايقاع كلماته وهو يخطب فى الناس ويدق بيئده
اليمنى على المائدة التي أمامه ورأينا الفتاة التي نسجت له علم مصر
وأهدته له وأجساد الفلاحين المتأرجحة على المشانق . وفى اخر الفيلم
رقد البطل على فراش الموت ثم مات . وبكت زينب وقالت بصوت
مخنوق انه فيلم حزين .

ثم أصبحت أأقلد مصطفى كامل . ألبس طربوشا قديما كان لجدى
صفوت واحدى سترات أبى وأضع كوب ماء على طاولة أقف وراءها
أكرر كلماته بصوت جهورى وأدق بقبضتى على الطاولة فتضحك أمى
وزينب ويصفق سعد وأحيانا يأتينا ضيوف فتنادينى أمى وتقول
« قلدى مصطفى كامل يا سوسن » فأقلده ويضحكون .

وربما فى نفس تلك الفترة أو بعدها بسنة أعلن جمال عبد
الناصر ما سمي بالقرارات الاشتراكية . كنا فى الاسكندرية نقضى
أجازتنا الصيفية مع أمى . وعندما عدنا الى القاهرة كان الحديث بين
جدى صفوت وجدى محمود يدور دائما حول « عيد الناصر الذى
خرب البلد » ولم أكن أفهم معنى هذه القرارات ولا لماذا يقولون أن
فيها خراب البلد . كذلك لم أكن أعرف من الصادق فى كلامه هما
أم مدرسة الموسيقى التي كانت تجمعنا فى الحصة الاسبوعية وتجلس
الى البيانو وتعزف وتغنى :

« وطنى حبيبي وطنى الاكبر

يوم عن يوم أمجاده بتكبر

وانتصاراته مليه حياته

وطنى بيكبر وبيتححرر »

ولم تكن مدرسة الموسيقى وحدها بل المدرسون الاخرون أيضا
فى حصص العربى والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية فى
السنوات التالية يدرسوننا أن عبد الناصر بطل عظيم لانه طرد
الانجليز من مصر وأمم القنال وحقق الاشتراكية التي تعنى الكفاية

والعدل ولأنه سوف يحرر القدس من المحتلين تماما كما فعل صلاح الدين من قبله .

هذا ما كنا ندرسه في المدرسة أما في البيت فلم يكن أحد يجب عبد الناصر . كان ذلك واضحا على الرغم من انه لا أمى ولا أبى كانا منتشغلان بالسياسة والحديث في أمرها . ولم يكن الامر يشغلني ولم يبذل لي أنه يشغلني أكثر من زينب التي كنت انتظر معها ليلة الاحتفال بثورة ٢٣ يوليو لنستمع الى الاغاني الجديدة التي يقدمها عبد الحلیم حافظ وشادية أمام جمال عبد الناصر في نادي الضباط ، ونشاهد الحفل معا في التلفزيون وتتابع العرض العسكري صباح اليوم التالي : تشكيلات الدبابات والمدرعات والصواريخ وطوابير الجنود وأسراب الطائرات المحلقة يعلق عليها مديع بليغ تتخلل تعليقاته موسيقى المارشات العسكرية .

كان جدى صفوت يكرر ان ربنا من غضبه على مصر ولى عليها عبد الناصر وكنت أنا وزينب نحب أغاني عبد الحلیم حافظ وتبصارى فى أداء أغنية أم كلثوم :

محللك يا مصرى وأنت ع الدفة
والنصرة عاملة فى القنال زفة
ياولاد بلدنا تعالوا ع الضفة
شاوخوا لهم

غنوا لهم

وقولوا لهم

ريسنا قال .. مفيش محال

راح الدخيل وابن البلد كفى

وعندما وقعت الواقعة وانهزم الجيش المصرى فى سيناء بكت زينب طويلا لان سوء حظها جعل كل هذه المصائب تحدث فى الايام المحددة لاعلان خطيتها ، أما أنا فركضت الى الشارع كان فيه النجاة من الموت ، ركضت بلا تفكير بدافع كالغريزة وأعادتنى أمى عنوة كائى نعجة شاردة وقيدتنى بالحبال . ليلتها قلت لزينب وأنا أحرق فى الجدار :

- زينب ...

- نعم

- تعرفين ؟

- ماذا ؟

- أمى ..

- مالها ؟

- انها تريد قتلى !

كانت عيناى مثبتتين على الجدار .

- هل جننت ؟

- لا ، انها الحقيقة !

- سوسن لا تقولى ذلك .

لم تفهم زينب . ظننتها الاذكى ، فى المدرسة كانت الاكثر تفوقا
تبذل مجهودا اقل وتحقق نتيجة افضل ، لماذا لم تفهم !؟
كررت :

- امى تريد قتلى يا زينب !

جلست الى جوارى وامسكت بيدي بين يديها وقالت : « انه
الشیطان يا سوسن ، انه الشيطان يوسوس لا تستسلمى له » وبكت
وقالت انها خائفة واحتضنتنى وقبلتنى ثم قامت لتصنع لى كوبا من
الليمون .

لم تفهمنى زينب ولكنى لم اشعر بالغربة ولا رأيت علامات الانشقاق
والتحول فهل ولد الانشقاق لحظتها أم أنه جاء بعد ذلك وأنا احمر
بأظافرى بحثا عن الاجابات التى تروى ؟ .

سبتمبر ١٩٦٧ . اليوم الاول من العام الدراسى فى نهاية
الحصّة الثالثة دق الجرس ونزلنا للفسحة لم اخرج الى الفناء مع
باقى الطالبات بل واصلت النزول على السلم الحلزونى حتى وصلت
الطابق الارضى حيث المكتبة .

الباب مفتوح . قاعة فسيحة مستطيلة تغطى حوائطها ارفف
الكتب . فى الطرف المقابل للباب جلست امينة المكتبة . اقتربت
منها :

- صباح الخير هل يمكن أن أستعير كتابا ؟

- أى كتاب ؟

تلعثمت :

- لا أدرى بالضبط ، ولكنى أريد أن أقرأ فى التاريخ .

قادتنى الى أحد الاركان وقالت وهى تشير الى مجموعة من الارفف
« هنا » ثم تركتنى وعادت الى مقعدها .

استمرت كتابا ضخما عليه صورة لرجل طويل يميز وجهه شارب أسود كث و يرتدى طربوشا غير مألوف الشكل وسترة طويلة بصفين من الازرار النحاسية المتقابلة . وكان عنوان الكتاب : « الثورة العرابية » .

وبدأت أقرأ . أقرأ بنهم فى الطريق الى المدرسة وفى الطريق منها ، فى المساء بدلا من المذاكرة وفى الليل والكل نيام ، أقرأ ، أتابع تفاصيل الثورة ، فعل عرابى ورجاله ، وقفته فى مواجهة الخديو بيميدان عابدين : « أنتم عبید احساننا » « لسنا عبیدا لاحد ، لقد خلقنا الله أحررا » تتجمع الاشواق كالفلاحين فى جيش الثورة ، تقوم وتنكسر ويأتى زمن الاحتلال . تحمل السفينة قادة الثورة الى المنفى وهم يولون وجوههم شطر الشاطئ الذى يتعد : « يا كنانة الله صبرا على الاذى حتى يأتى الله لك بالنصر » أبكى ، تختلط الحروف أمام عيني فأمسح دموعى ولكنى فى النوم أبكى . توقظنى زينب وتأتى لى بكوب ماء أشرب . تقول انه كابوس ، فتصحنى : « اقرأى الفاتحة قبل النوم فتبدد الكوايس » .

١٨٨٢ لا تبدد . البوارج فى البحر تقصف الاسكندرية . الحصون لنا والبوارج علينا . تجفل روحى من قصف الغزاة لمدينة هى لى ملهى الطفولة ، اسكندرية الامواج واللعب تتوارى خلف الحصون تصمد ثم لا تصمد . وعرابى فى ظلام سجنه يسمع الصوت قبل أن يرى صاحبه .

- يا عرابى

- ماذا تريد ؟

- أتدرى من أنا ؟

- لا ! اعلمنى باسمك وماذا تريد منى فى هذا الوقت ؟

- أنا ابراهيم أغا يا ابن الكلب يا خنزير

ثم يبصق على عرابى ويهينه .

فهل كانت هزيمة التل الكبير هى التى توجع أم هزيمة الجيش فى سيناء ؟ شىء يجرح ويهين يلازمنى فى النهار فأواجهه بعناد شرس متخشب وفى الليل يفيض دموعا يغمرنى فأصير ككسرة خبز فى الماء فتاتا هشما .

ليلة من ذات الليالى انتهت زينب فسالتنى :

- لماذا تبكين ؟
- لا شيء
- ولكن الدموع تبلل وجهك وعيناك حمراوان .
- لا شيء .
- جلست بجوارى وألحت فى السؤال فقلت . أعلنت دهشتها .
- تبكين هكذا من كلام فى الكتب ؟
-
- الانسان لا يبكى الا لاسباب حقيقية .
-
- سوسن انك تكذبين ، ماذا حدث ، هل وقعت فى الحب ؟

ذهبت اليوم زيارتها وكما في كل مرة ننفرد باللقاء أعود وقد
ركبتي الفم والسؤال المربك الملح : « أليس هناك من طريقة لدرء تلك
الوحشة التي تنتصب كالسلك الشائك بيننا ؟ » نلتقى فيجثم الصمت
على صدرينا لا يقطعه الا جمل منبته .

لا شيء يجرى ، لا نهر ، لا نبع ، لا دائرة تواصل ... لا شيء الا
تلك النظرة الصارمة التي تباغتني أحيانا بها ... لحظة خاطفة يعقبها
الانصراف والتجاهل .

لم تكن الأمور هكذا دائما . في طفولتي المبكرة كانت هي كل شيء
ليس فقط لان أبى كان غائبا في عمله تكاد لا تراه الا يوم الجمعة
ولكن لانها اعطت ايامنا شيئا من الفرح الصاخب لاطفال في مدينة
للملاهي : نضحك في طرب منتش ومستشار . وحتى عندما كنا نخطيء
فتصرخ فينا كالغولة ونركض مدعورين كالارانب نختفي في الاركان
والزوايا كانت تصفو بسرعة مدهشة وتقمرنا في صخب جامع ترفعنا
كانها موجة في بحر الاسكندرية الكبير .

فما الذي حدث بعد ذلك ؟ حادث مؤسف او امر طبيعي؟ طلقة
افزعت الطائر فهاجر بعيدا عن مدى الصياد .. ولم يكن يوم قيدتني
بالحبال الى السرير اذ كنت منشغلة عنها وعن نفسي بالكارثة التي
حلت . يوم آخر هو الذي افزعني فركضت نافرة ومدعوة .

حدث الامر بلا مقدمات . لم تتشاجر مع سعد ، لم يصدر عنه
شيء يستدعي العقاب ، لم يجز نقاش يمهد لما فعلته . عاد سعد من
مدرسته دخل حجرته ثم خرج منها . وكنت اجلس بجوارها نشاهد
تمشيلية في التليفزيون .

- ماما ، اين اشياي ؟

اجابت دون ان ترفع عينها عن التليفزيون :

- انا والشغالة قمنا اليوم بترتيب حجرتك ، الا تقول شكرا ؟!

- والرسوم ياماما ، الرسوم والتماثيل اين وضعتها ؟

- تخلصت منها

- تخلصت منها ؟!

كنت انا التي سألت . سعد واقف امامنا ممتقع الوجه كأنه سوف

يسقط مفسيا عليه

— لماذا يا أمي ... لماذا ؟

— لا قيمة لها ... لا معنى لها ... تشغلك عن دروسك وتجعل
الحجرة كقلب للقمامة ... أوراق وطن وجبس وخشب ...
كراكيب تخلصنا منها !

— كيف ؟

— أعطيتها للزبال .

أغلقت التليفزيون ووقفت في مواجهتها أصيح :

— ماما ماذا فعلت ؟

— لا أسمع لك بمخاطبتى بهذا الشكل ، كيف تجرؤين ، هذه
وقاحة !

أدرت لها ظهري ولحقت بسعد في غرفته وطرقت الباب بمنف
وكان سعد جالسا على سريره مطاطيء الرأس . حاولت التحدث
معه ولكنه بقي صامتا ثم أنهيت الى الزجاج على الارض والى يده
النارفة . كان قد حطم كوبا زجاجيا زخرفه بنفسه ليضع فيه أقلامه
على المكتب ، ضغط عليه بيده حتى تحطم . أخذته ونزلت الى أقرب
صيدلية لعمل الاسعاف اللازم . بعدها أصيب بحمى استمرت عدة
أيام وأعلنت أمي أن سعد جرح يده وذهب الى صيدلى حمار لم يفلح
في تنظيف الجرح فإدى الى تلوث تسبب في هذه الحمى . قالت أمي
هذا الكلام وظلت تميده حتى صدقته .

عندما كنت صغيرة كانوا يقولون انى أشبهها « الخالق الناطق
خديجة » ، « سوسن نسخة من أمها » الآن لم أعد أشبهها . هي
خديجة الملكة التى تدير المستشفى بصرامة قائد عسكري وتلبس ثياب
الحرير الطبيعى التى تفصلها لها مدام لورا الخياطة الإيطالية وتحلى
بمشبك البلاتين المطعم بالماس او بمقد اللؤلؤ الحر وانا سوسن ذات
الحذاء المعفر يشغلها كتاب أو سؤال فتنسى شراء رغيف خبز للعشاء
وتنتبه فى الصباح انه لم يعد لديها قطعة سكر تحلى بها كوب الشاي .
لم أعد أشبهها ولذلك استغربت كلام مجدى عندما قال: « تشبهين
أمك بشكل مدهش ! » واجبتة : « كنت أشبهها اما الآن فأختلف
تمام الاختلاف » قال : « تشبهينها من الداخل ، قوتك ، عنادك ،
كلها منها وليست من أبيك ! » وكان ذلك أعجب ما سمعت ولم أفهم
كيف رأى مجدى ذلك .

فى طفولتى أعجبت بدكاء أمي ومهارتها وكان البيت كالساعة
فى نظامه ونظافته . أن قامت بطهو الطعام أجادت وأن استقبلت

ضيوفنا فبالشكل اللائق وان تحدثت احسنت تكرر على مسامعنا
« لا أحب النص نص . في المدرسة كنت الأولى باستمرار . تلاميذ
بالنسبة لى تعنى تلاميذ مجتهدين . القبول بالسؤلية يعنى القياس
بها على اكمل وجه « وأصبح سعد طبيبا نص « يملؤها ذلك مرارة
تتغاضي عنها حينما وحينما تتذكرها فتنفجر فيه كأنه عاد لتوه حاملا
شهادة تخرجه بتقدير مقبول .

في المدرسة كنت افخر بها عندما تأتي لزيارتي فتبدو اجمل
الامهات وأكثرهن اناقة وذكاء . أرى الاعجاب في عيون المدرسات
وزميلاتي أيضا كن يحسدننى لانها تشرح لى الدروس وتساعدنى
في كتابة مواضيع الانشاء وفي رسم الخرائط .

في سنوات المراهقة انقلب الحال فكنت اشعر اننى منكوبة بها
وهي تضغط وتقتحم وتقمع وبدأ اللجام في يديها قارصا بما لا يطاق
تركتها تمسك بلجام وهمى . حفرت لنفسى سراديبى الارضية التى
لا تراها ولا تعرف بوجودها . أدت شئونى بما يحلو لى بعيدا عنها ،
الكتاب الذى اقرؤه ، السؤال الذى يشغلنى ، الصديقة التى اسكن
اليها ، الشاب الذى أحبه كلها في السرداب أمور لا تعلم عنها شيئا .
هكذا تحاشيت صدامات يومية تنهكها وتنهكنى وأحيانا رغم ذلك يقع
الحادث المؤسف كأنه لا راد له :

قال سعد :

- ماما ، أحب فادية وأريد التقدم لخطبتها .
- ومن هي هذه الفادية ؟!
- كانت تعرفها وتعرف أنها صديقة سعد . .
- ماما لقد رأيتها أكثر من مرة ، انها زميلتى في كلية الطب .
- وما عيب راندا ؟
- تلعث سعد واحمر وجهه . تدخلت في الحديث :
- وما عيب فادية ؟
- لا تناسبنا . راندا احلى وأكثر اناقة وابوها جراح كبير كابيك .
- ولكنه يحب فادية ولا يمكنك أن تملى عليه شعوره .
- كفى عن هذه الوقاحة ولا تتدخلى فيما لا شأن لك به . اسمع
ياسعد ان كنت تريد الزواج فانا مستعدة أن اذهب معك الى الدكتور
سالم ونطلب راندا ، أما موضوع فادية فمن الافضل أن تصرف نظرك
عنه وان كنت مصرا فاذهب وحده .
- بعدها بأسابيع سألته :

- ماذا فعلت في موضوع فادية ؟
- لم أفعل شيئا .
- هل تخليت عن الموضوع ؟
-
- لماذا لا تجيب . ؟
- ماذا أقول !
- قل لى ماذا حدث ؟
- قلت لها انك غير موافقة وانى مستعد للتقدم لخطبتها وحدى
- ماذا قالت ؟
- رفضت .

ابتسمت أمى ابتسامة عريضة وقالت :
- أنت ولد ساذج وبريء . هى وأهلها يريدونك طمعا في مال
أبيك ومركزه .

- أرجوك يا أمى كفالك تجريحا !
وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها صوت سمع يعلو
ويحتد . انسحب الى حجرته . يوما اشتبكنا ، علا صوتى وعلا
صوتها ثم خاصمتنى شهرا لم تبادلنى فيه حرفا .
فى البداية كنت مزهومة بها لا أرى أذكى ولا أجمل منها ثم ركضت
نافرة وخائفة من عنفها المستبد . الآن لم أعد أركض ربعا لأننى لم
أعد خائفة . أقول لنفسى هى أمى وأنا ابنتها وهذا قدر لا راد له وهى
لا تملك الآن أن تملى على حياتى فلماذا لا أقبلها كما هى ؟ ولكنى
لا أقبلها كما هى وأظل أتساءل لماذا تختلف أمى الى هذا الحد عن أم
سميرة مثلا . خالتى سيدة على عكس أمى لا يقلقها امتلاء جسمها
لها وجه قمحى مستدير يؤكده فرق فى المنتصف تصفف على جانبيه
شعرها الأجدل الذى بدأ يغزوه الشيب . تلس اثوابا منزلية متواضعة
تفصلها بنفسها على ماكينتها « السنجر » ذات اليد . باب شقتها
لا يفلق أبدا وزوارها يأتون فى كل وقت ، جيران وأقارب ومصارف
يأتون لطلب النصح أو المواساة أو كوب من الزيت أو جنيهين حتى قبض
المرتب أول الشهر أو للثرثرة وشرب كوب من الشاي . ربت خالتى
سيدة وأولادها وأطلقتهم فى الدنيا احرارا يفعلون ما يروق لهم ، لا تطلبهم
بشئ بل وتقبل خياراتهم حتى وأن لم تكن تفضلها ويظل صدرها
واسعا ويدها ممدودتين وفى المينين نظرة تماطف ومحاولة للفهم
فلماذا عندما جرؤت على اعلان أننى سوسن ولست خديجة اسقطت
أمى ذراعيها وأدارت عينيها وانكرتنى ؟!

أسأل عن مصدر الاختلاف بين المرأتين هل هو طبع أم تطبع مرده حياة عانت خالتي سيدة التضحية وانكار الذات ولم تعلم أمى سوى التملك والاستداد ؟ هل خالتي سيدة أقل ذكاء من أمى وأضعف شخصية أم أنها أرقى وأطيب وأحكم ؟ وهل العصا واللجام اللذان تتمسك بهما أمى من معدات الطبقة التى تنتمى إليها ؟ وانصح هذا فلماذا يختلف أبى عنها الى هذا الحد ؟! انه أكثر سلاسة منها يمكن التفاهم معه حتى عندما لا يتقبل ما أقوله أو افعله يعلن اختلافه ولكنه لا يشتمل كالنار وينفجر فتتطاير الشظايا فى وجه محدثه . انه سهل العشر ومشفوق وبهها « افعلنى ما تريدنه ياخديجة » ، « الأمر لك » ، « ولما لا ... اليس هذا ما تفضليته ؟ » تكرر العبارات فى بيتنا كلازمة لحياتنا اليومية . سلمها كل شيء عن طيب خاطر لانه منهمك فى عمله الذى يستوعبه من الصباح الى المساء . يعمل طول الوقت وعندما يعود الى البيت يفرط فى تدليلنا كالأب المساند من السفر . هو يقدق ويدلل وهى تمسك باللجام وتفرقع بالسوط وتوجه بالمهماز لانها تريد لنا السبق والفوز ، هذا ما تقوله وتعتقده .

تفزعنى وأحبها ، ليس فقط لاننى نشأت على حبها ولكنى أحبها لانى أحبها وأعى تلك اللحظات التى تفاجئنى نفسى وهى تسعى اليها تطالب القرب والقبول وارتيك لانى لا اعود أفهم ان كانت سوسن الوافة بعيدا تحمل الف مأخذ على خديجة ، وأقفة بعيدا حقا بكامل روحها أم ان شيئاً ما بنسلت منها ويخطو متلصصا الى المرأة الوافة هناك يفتح ذراعيه ليطوقها وهو يهمس : « انظرى الى يا أمى فأنسا أحبك ! »

فهل تطوقنى أمى أم اننى قطعت الرباط . أقيم وحدى ولا يملئ خطوتى الا ما أفتنه به وأعترف من ضرورة ... انقطع الرباط ... انقطع ولكنه يترك علامته كحلل العقدة الفائرة فى منتصف البطن تميز جسد الإنسان منذ ولادته وإلى الأبد .

اليوم رأيتك قال وهو يبتسم ويرفع يده بالتحية :
- كيف حالك يا سوسن ؟
قلت دون أن أبتسم :
- لا بأس .

وابتعدت فكيف يمكن للمرء أن يركض محمومًا في اتجاه إنسان
ثم يعود يركض في الاتجاه المعاكس ؟ وكيف يتحلل الشيء البهيم
كوردة فيشر في النفس التقرز والنفور ؟

عندما دخلت إلى بيت أمين في تلك الليلة ورأيتك جالسًا ضمن
الجالسين اندهشت إلى حد الارتباك وملت على أمين أهمس في أذنه
« لم أكن أعرف أن الدكتور عبد الموجود صديقك » ابتسم أمين بزهو
طفولي « إنه صديقي جدًا . لقد عاد من السفر الأسبوع الماضي » .
صافحته كما صافحت الآخرين وجلست باستحياء في حضرة الأستاذ
لم يكن يعرفني ولكنني كنت أعرفه فقد درس لي عامين في الجامعة
وكنت واحدة من مئات التلاميذ الذين كانوا يجلسون في المدرج
مأخوذين بعلمه وبلاغته .

كان في الأربعين أو ربما تجاوزها بسنوات قليلة قوى البنية
وحلو القسومات له عينان دعجاوان وحاجبان مقرونان وششارب
أسود كث يلتقي بلحية تغطي ذقنه تماما وتكاد تخفي امتلاء شفثيه .
كان أسرا في شكله وحديثه وكتاباتة ومواقفه وكنت أجلس في المدرج
أطلع إليه وأتابع ما يقول فيبدو لي ساطعا وبعيدا كنجوم السماء أو
السينما ولكنه الآن كان يجلس على بعد شبرين عني يتحدث ويضحك
بعادية والفة مذهلة .

ثم قام ليعد القهوة ووجدت نفسي أتبعه إلى المطبخ . وقف يصنع
القهوة ووقفت أنظر إليه . حدث شيء ، شيء ما حدث فما الذي حدث ؟
لا شيء . رجلا يصنع القهوة وامرأة تنظر إليه فيحدث ذلك الشيء
الذي يسقط كل الأيام السابقة مصفرة وغريبة ويابسة كان لم تهب
فيها حياة قط ويأتي بأيام تورق وتفتح وتوهج بهية وجسديدة
وخضراء . هل هكذا حب النساء أم أنني التي أصابها الحب كصاعقة
فصارت تركض في اتجاه من تحب كأنما الركض إليه هو الوجود

وعلة الوجود ، وهل كان حبا او شبقا ام كان الاستاذ الذى اسرنى
 بمحاضراته وكتبه ومواقفه قد كسب الجولة مسبقا ؟
 صرنا نلتقى مرتين فى الاسبوع ، هكذا رأى من المناسب وهكذا
 كان . مرة نتناول غداءنا معا ونمضى ساعتين من الثانية حتى الرابعة
 ومرة نلتقى مساء من السابعة حتى التاسعة . يتحدث وأسمع مأخوذة
 كطفلة امام خشبة مسرح مفردة لعرض رجل واحد يروح ويجىء
 يصول ويجول ، يستعرض قدرة مبهرة على تحويل مفردات التجربة
 الى أفكار وأفكاره الى حياة . مدهش كحاي يدخل الارنبه فى سترته
 ويخرجها من كمه مناديل ملونة ، يقلب قبعته على المناديل الملونة ثم
 يرفعها فتجد الارنبه . وأنا طفلة بين يديه يبهرها عرض الرجل
 الواحد ويأسرها أن العرض مقام لاجلها فكيف لامرأة تجاوزت الخامسة
 والعشرين ان تنهر هكذا كطفلة . . اية حمق واية بلاهة ام هو الحب
 يسلب الانسان عقله وكيف وانبهارى قائم على احساس جارف بذكائه
 وعلمه وقدرته على التحليل السياسى والتاريخى وعلى استخلاص جوهر
 المسألة وقانونها من ركام التفاصيل وصياغتها بوضوح وفصاحة ؟!
 كان ذكيا وبليغا وكنت أحبه .

قالت لى سميرة أنها قلقة بسبب هذه العلاقة .

- لانه متزوج ؟

- لانه متزوج وأيضا لانه مقلق .

- ولكنه متزوج وغير متزوج . لا شئ يربطه بزوجته . انهما
 يسكنان معا من أجل ابنتيهما . وأنا يا سميرة لا آخذ ما ليس لى ولا
 أتعدى على حق أحد !

اندفعت كلمائى بلا قصد حادة وغاضبة . ألمنى كلامها واستفز
 طاقتى للدفاع عن النفس . ولكنها عنيدة ، كررت بهدوء كأنها لم
 تسمعنى :

- لا أطمئن له . . به خلل ما لا أدرى ما هو ، خلل ليس فى

التفاصيل بل فى الجوهر ، سوسن أنا متأكدة !

قالتها بعناد البغال وحسم الانبياء وتركها حانقة أقول لنفسى ان
 صديقتى غبية فمن كان الغيبى فينا ؟!

قلت لعبد الموجود : « حدثنى عن زوجتك » قال : « ألم أفعل
 من قبل ؟! » كان قد حكى لى عن ملابسات زواجه بها أثناء دراسته فى
 الخارج « كنت غربيا ووحيدا وكانت هى صغيرة ولطيفة وابنة
 استاذى الذى فتح لى بيته كائنى واحد من الاسرة . . كانت قصة
 عاطفية عابرة ولكنها للأسف انتهت بالزواج وطفلتين فلم تعد قصة

عابرة رغم أن العاطفة استنفدت نفسها وانتهت « كان ذلك ما قاله لي في مرة سابقة ، هكذا بشكل مقتضب ولكني في هذا اليوم كنت أريد أن أسمع منه بإسهاب . قال :

- لماذا تريدني أن أحدثك عنها ؟

- أريد أن تحدثني عنها ، عن علاقتك بها .

- ليس لدى ما أقوله ، انها امرأة طيبة محدودة الامكانيات وليس بيننا سوى البنيتين وحكاية قديمة .

- فقط ؟

- فقط !

نظر الى ساعته وقال أن موعد ذهابه قد حان . كان دقيقا كساعة منظما كحاسب آلي يبدأ يومه في الخامسة الاثلثا صباحا بتمرينات رياضية لعشر دقائق ثم حمام بارد وفنجال قهوة بالحليب ويجلس الى مكتبه من الخامسة الى الثامنة والنصف بعدها يتناول افطاره وينزل الى الجامعة .

ولم ألتق بزوجة عبد الموجود الا عندما دعاني لقضاء ليلة رأس السنة في بيته .

وفي الليلة المحددة ذهبت . كان بيته في المعادي ، شقة بالطابق الاخير في عمارة حديثة . أدهشني ثراء البيت والعناية الكبيرة المتبدية في تآنيته وترتيبه . كانت أرضية الصالة مغطاة ببساط أبيض سميك الوبر يمتد من الحائط الى الحائط كذلك كانت وسائد الاراتك والمقاعد الوثيرة من قماش عاجي اللون تتخلله خيوط ذات لمعة فضية أما الموائد الصغيرة فكانت مسطحاتها من زجاج دخاني اللون وضعت عليه منافض للسجائر مصنوعة من الفضة أو الكريستال ولمحت في أحد الاركان زهرية ضخمة من الصيني الثمين عليها رسم تنين أسطوري وتحمل مجموعة من ريش الطاووس . سألتني عبد الموجود .

- ما رأيك ؟

- فخم ، ربما أكثر مما يجب !

قطب .

- وهل يجب أن يعيش التقدميون في أكواخ ؟!

ثم ضحك .

- تعالى أعرفك على جين .

نادى عليها فجاءت . أدهشني جمالها . كانت امرأة قوية الحضور بدا ذلك واضحا حتى قبل أن نتبادل حرفا واحدا ، طويلة ممشوقة القوام أميل للنحافة لها وجه جميل القسيمات يعلوه بعض النمش

وشعر خيلى اقرب الى لون الحناء . وكانت تلبس ثوبا جميلا من القطن المطبوع . ابتسمت وهى تسلم على فبنت اكثر عدوية واقل قوة . قالت مرحبة بود ان عبد الموجود حدثها عنى فاندھشت للمرة الثالثة .

ما الذى أشعرنى باننى وحيدة ؟ جلست بين المدعويين أبحت عن كلام أقوله فلا أجد ، ان توجه الى أحد بالحديث أجبت باقتضاب وعلت للصمت . ما الذى أتى بى الى هنا ؟ لازمنى السؤال طوال السهرة كما لازمنى شعور بالدهشة والخرج . كان عبد الموجود مشغولا عنى بضيوفه الاخرين . ربما استفزته عبارتى عن فخامة البيت وربما كان يتعصب اهمالى حتى لا يفتضح أمرنا ولكنه عندما انتصف الليل وأطفئت الانوار وتماثلت الهمسات الضحكات فوجئت به يحيطنى بذراعيه ويقبلنى فانتفضت خائفة ثم أضيئت الانوار درت بعينى أبحت عن جين فلم أجدها ولما سألته عنها قال : « لا بد انها فى المطبخ تستعد لتقديم العشاء » .

غادرت بيت عبد الموجود يثقلنى شعور بالفئيان وآلام فى الرأس وعندما وصلت الى البيت دخلت الى دورة المياه وانحنيت على المراض وتقيأت ، تقيأت كثيرا وطويلا حتى اننى جلست على الارض لصق المراض لا أقوى على الحركة .

فى اليوم التالى اتصلت به :

- أريد أن أراك .

- موعدنا بعد غدا .

- ولكنى أريد رؤيتك الآن .

- لا وقت لى ولكن لو كان الامر ضروريا جدا آتى ، هل تريدنى

لامر ضرورى جدا ؟

- نعم .

جاء فقلت :

- عبد الموجود اعتقد أن الامور لا يمكن أن تستمر على ماهى عليه .

- لا أنهم .

- أقصد استمرار علاقتنا ... وجود زوجتك ...

- لماذا ؟

- ...

- لا أفهم ما الذى يقلقك . قلت لك وكنت صادقا اننى لم أعدا

مرتبطا بها . عاطفيا أنا حر ومن الطبيعى أن أنشئ علاقات تفى

باحتياجاتى .

- ولكن زوجتك حاضرة في حياتك ، تعيش معك وتستقبل ضيوفك
وتعد لك طعامك و ..

- لا تكوني ساذجة .

- لا أفهم .

- هناك اعتبارات عملية . نعم جين زوجتي ، شريكتي في البيت وأم
أطفالى هذا موضوع أما أن أحب وأصدق فهذا موضوع آخر ، من حقى
- وأنا ؟

- أنت فى وضع أفضل منى لانك حرة تماما حتى من الارتباط
الشكل .

كدت اقول له اننى أريد الارتباط به بالشكل الطبيعى والمتعارف
عليه بين البشر منذ آلاف السنين ، أن أتزوجه وأقيم معه وأنجب منه
أطفالا ، ولكنى أحجمت .

- لسنا صغارا ياسوسن وهناك أولويات والاولوية المطلقة عندى
هى قدرتى على العمل ، على الكتابة والمشاركة الفعلية وهذا أمر لا يخصنى
وحدى بل يتعلق بدور علمى وثقافى وسياسى نذرت نفسى له .
تصورى لو أننى كلما أحببت امرأة ركضت خلفها لأبدأ اطارا جديدا
لعباتى لن أتمكن من كتابة أى شيء ولا المساهمة فى أى فعل ...
سأنتهى . أنا اذن بحاجة الى الاستقرار لاكون منتجا . تزوجت جين
منذ خمس عشرة سنة ، لى منها بنتان وبيننا بيت وحياء مشتركة ،
أحتاج هذا ولكنى أحبك أنت ولا أرى تناقرا بين الأمرين !
- ولكن هذا الوضع مهلك لى .. وغير أخلاقى .

ضحك .

- أنت متخلفة .

- أنا ؟!

استجمعت شجاعتي وقتلتها :

- ولكنى أريدك معى . أريد أن تربطنا حياة مشتركة .

- هذه أناية .

- أناية ؟!

ربما شعر أنه تسرع فى الكلمة . ربت على كنفى وهو يبتسم :

- تعرفين أننى أحبك ولكنى أفكر بشمكل عملى وليس بمتنطق « عش

العصفورة يكفيننا » لا أحد يعيش على الحب ياسوسن سوى الإبطال
الاشمياء فى الافلام العاطفية الرخيصة .

- ونحن طبعا لسنا أغمياء ولا حياتنا فيلما عاطفيا رخيصا ، اليس

كذلك يادكتور ؟!

وذهبت وعلى فمي ابتسامة ساخرة ومرة باغتنته كما باغتنني أنا
نفسى فلم أعد لهذه النهاية ولم تخطر لي ببال . تركته ومشيت في
طريقي الى البيت بهدوء واتزان كأننى لم أكن أركض تجاه رجل أحبه
فاصطدمت بجدار من زجاج شج رأسى وجرحنى وترك كدماته الزرقاء
تعلم في جسدى .

ما الذى جعلنى أقع فى حب عبد الموجود اسماعيل ؟ شغلنى
السؤال لشهور وعندما طرحته على سميرة قالت : « لكل انسان قانونه
النفسى » فقلت : « وهل قانونى هو الوقوع فى حب الانسان الخطأ ؟ »

هادى . . . الحب الاول . . . ذلك الجنون الذى يعترى الطائر فى
السماء فيضرب بجناحيه كأنما أصابه مس من كهرباء أو حمى . أحبه
أحب كل شيء فيه ، شعره الاجعد ، عينيه الصغيرتين نظارته الطيبة ،
فمه الكبير ، نحول جسده ، صغر جسمه ، ابتسامته الخبيثة ، ينطلقونه
« الجينز » وقيصه القطنى .

همست لى زميلتى نجاح وهى تقف بجوارى فى طابور الصباح
بالمدرسة :

- ذكرينى فى الفسحة ، سأقول لك سرا .

- ولماذا لا تقولينه الان ؟

- لا وقت ، ثم انه سر ، لا بد أن تقف بعيدا حتى لا يسمعنا أحد .

ثم وهى تهمس فى أذنى :

- انه سر خاص بمظاهرات الطلبة .

على مدى الحصص الثلاث لم أفعل سوى انتظار انقضائها . أنظر
فى الساعة ثم أعود وأنظر فى الساعة . هل شاهدت نجاح المظاهرات؟
ولكن كيف تشاهدها وقد كانت بالقرب من الجامعة فى الجيزة وهى
تسكن فى عابدين ؟ لا بد أن أحدا حكى لها ، ترى من الذى حكى لها ؟
أنظر فى الساعة وأحدق فى وجه المدرسة وهى تشرح الدرس وأفكر
فى السر . وأخيرا دق الجرس .

انتحينا جانبا تحت شجرة التوت الكبيرة . قالت نجاح وعلى
وجهها تقطبية من ينطق بأمر خطير :

- انه سر ، أقسمى ألا تفشييه لأحد .

- أقسم .

- لا ، قولى والله العظيم ثلاثة لن أقول .

- والله العظيم ثلاثة لن أقول .

قالت بصوت هامس رغم أننا كنا وحدنا في ركن قصي من فناء المدرسة .

- أختي هادي اشترك في المظاهرات بالامس وعاد الى البيت ورأسه مجروح ومربوط بالشاش الابيض ولما سأله أبي قال له انه كان يسمع معلقة امرىء القيس في فناء الجامعة ولم ينتبه فاصطدم بشجرة وجرح وذهب الى عيادة الكلية فربطوا له رأسه .

- وهل أخوك في الجامعة ؟

- في سنة ثالثة في كلية الآداب .

- هل معك صورته ؟

- لا .

- غدا هاتي الصورة ، لا تنسى !

أتت بالصورة ، تطلعت اليها فرأيته جميلا وعندما ذهبت لزيارتهم وجدته أجمل . كان يتحدث بطلاقة وثقة وكنت أفهم بعض ما يقول ولا أفهم البعض الاخر فيزداد انبهارى .

خبأت صورته في كتاب التاريخ ، أفتحه وأتأملها : اسمه جميل وشكله جميل وكلامه جميل ولكن الاجمل انه عبقرى . . أقول ذلك لزينب فتضحك : « عبقرى ١٩ » فأؤكد بثقة : « نعم عبقرى ! » .

كان في التاسعة عشرة وكنت أصغره بأربعة أعوام . يقول : « أحبك يا سوسن » وأقول : « أحبك يا هادي » نكتبها في الرسائل نهمس بها في التليفون ، نعيشها في التقاء عيوننا وتلامس أيدينا في اللقاءات الخاطفة .

وكان هادي يتقن التحليق في الاحلام ، يطير كأنه طائر ، طائر مدهش يلبس نظارات طبية ويدمن قراءة الكتب وترديد الاشعار . ويعنى لى أغنيته المفضلة :

في كل حي ولد عترة وصيبية حنان

وكلنا جيرة عشرة وأهل وخلان

أميرة عاقلة وفي الحجلة ، العقل يطير

كانت صغيرة بضغيرة وكان هو صغير

ساعة ما تضحك مع أخوها تلاقيه بغير

ولما ترفع قلتهم تلاقيه عطشان

زمانه ماشى بخطوة تضم

زمانها كبرت وبقت أم

زمان جواب جاييلها يجرى على العنوان

في كل حي ولد عترة وصيبية حنان

وكلنا جيرة وعشرة وأهل وخلان
الفجر بيلاقي المغرب ويسجي ويروح
والليل يرد على الشوارع شباك مفتوح
هنا الرصيف وهنا السلم وهناك ياسطوح
متعلقة كمام النونو في ديل الفستان
زمانها كبرت وبقت أم
زمان ضناهم في المدرسة كنز الاوطان

التحقت بالجامعة في نفس السنة التي عين فيها هادي معيها بها
بعد تخرجه وبدا لنا في تلك السنة الاولى أن الجنة فتحت لنا أبوابها
فدخلنا نتسكع في أرجائها بخطوات كسولة نتحدث طويلا عن أنفسنا
وعن الآخرين ، في السياسة وفي التاريخ ، نخوض فيما مضى وما
سوف يأتي ونطرح المخاوف والاحلام . نتحدث حتى يفيض الحديث
عن الزمن المباح بين محاضرتين أو بين الوصول في الصباح والمغادرة في
المساء . نودع بعضنا على دقائق ساعة الجامعة ونخرج من البوابة
الحديدية « غدا نلتقي » وملتقى لنجد جنتنا على حالها مشرعة الابواب .
فماذا حدث ؟ كيف يتعكر ماء النبع ومن أين تأتي نباتات الوحشة
وبأي قانون تتكاثر وتعيق المجرى وتسسد الطريق ؟ قال « أنت
المسئولة ! » كنت أحبه ، أكابر في الصباح وفي الليل أبكي . فهل
كان هادي يريدني وردة بين يديه خالصة له وحده ترقبها العيون عن
بعد فتحسده لانها له أم أنني كنت نافرة وعنيدة كما قال ؟ هل كانت
يده التي تحيط بي يد العاشق التي تحمي وتضم أم كانت يدا تطوق
وتمتلك ؟ أم كانت اليد واحدة في الحاليتين ؟ هل كنا طفلين عنيدين
بددا قيمة بسلوكهما الاحمق ؟ وهل تدهور هادي لان علاقتنا تحطمت
أم أن علاقتنا لم تدم لان شيئا بداخلي كأنه الحدس نفر وابتعد عندما
لمح حللا كامنا ؟ كنت أحبه ، أتزين في المرآة لاجله وأقبل عليه بلهفة
العاشقة وعندما ألقاه نختلف ، يعلو صوتي ويعلو صوته ، نتشاجر ثم
نتخاصم ، وفي المساء أفتح كتبي لكي استعيد دروسي فلا استعيد الا
خلافاتنا وتضطرب الحروف أمام عيوني الدامعة !

ذات صباح ذهبت اليه وقلت : « أتركني وشائني ، سارسيب
في الامتحانات ، هل يمكن أن تتركني وشائني ؟ » تركني . لم نلتقي
طوال شهرين ثم تصالحنا . وبدا ان الاوقات صفت وكذلك المياه التي
عادت الى مجاريها ولم يكن هناك ما نتشاجر بشأنه . توقف نشاط

الاسرة بسبب الامتحانات ثم العطلة الصيفية واختفى كل الاولاد الذين كان يفار هادى من وجودى معهم .

بدأ العام الدراسى وبدأت الخلافات هذه المرة أعنف وأحد عرفت بها نبجاح فتوسطت بيننا فى محاولة لمصالحتنا « كل الطلاب والطالبات عيونهم عليكم ، لقد حسدوكما ! » نهرها هادى أما أنا فضحكت .
حدجنى بنظرة صارمة قال مواصلا الكلام :

- سو من أنا لا أمزح ، لا أريدك بهذا الشكل !

- وأنا أيضا لا أمزح ، هذا شكلى وان لم يكن يعجبك انتهيئا !

ولكننا لم ننته عام كامل من الشد والجذب ، واللهفة والتصادم .
أركض نحوه ويركض نحوى وعندما نلتقى يعلو صوتنا وتتشاجر ،
أتركه غاضبة وفى المساء ينحسر الغضب ليحل محله حزن واهن .

أحكى لامين زميل فى الكلية وفى الاسرة : « تغير هادى يا أمين ،
تغير . أحاول أن أفهم غيرته ولكنى لا أفهم هذا الحرص الذى استجد
عليه فجعله يخشى أية كلمة أو لفتة تهدد مركزه كمعيد . ولو انترضنا
أن ذلك من حقه فكيف يحق له أن يطالبنى بوقف أى نشاط بدعى أن
ذلك أيضا ينعكس على وضعه . . . وماذا يفعل بى اذن عندما نتزوج ؟! »

تجمعتنى بأمين صداقة وألفة تجعل الحديث يجرى بيننا فى هدوء ويسر
أفضى له بمشاكلى مع هادى ومع أمى ، أحده عن أبى وسعد وهو أيضا
يحكى لى عن أهله فى القرية وأبوه الذى أراد له أن يدرس فى الجامعة
ليصبح كالأستاذ عبد الصبور مدرس القرية التى يحلف أهلها بحياته .
بعد انتهاء المحاضرات اجلس مع أمين لنناقش نشاط الاسرة الجامعية
التي ننتهى اليها ونعد المادة التى سننشرها فى جريدة الحائط وعندما
ننتهى لا ننصرف كل الى حاله بل نمشى سويا فى الطريق المؤدى الى
كوبرى الجامعة نعبره ونواصل حتى نصل شارع القصر العينى فيتجه
هو الى منطقة مجرى العيون حيث يسكن وأركب أنا الى ميدان مصطفى
كامل .

فى ذلك اليوم قال لى أمين انه يريد التحدث معى فى موضوع هام
فصحبته الى مقهى مطل على النيل بالقرب من الجامعة . . قال :

- تعرفين سميرة أليس كذلك ؟

كنت أعرفها عن بعد فهى زميلة لنا تصغرنا بعامين دراسيين
وتشاركنا أحيانا بعض نشاطاتنا فى الاسرة . كانت فتاة سمراء دقيقة
الملامح تتميز بتعليقاتها الساخرة وبديتها الحاضرة وشيء من حدة عند
الاختلاف . قلت :

- أعرفها

- أريده التقدّم لخطبتها .

- وهل فاتحتها في الأمر ؟
 - لم أفاتها . . . لم تواتني الجراءة . هل يمكن أن تسألها أنت
 عن رأيها ؟
 - هل تريد أن تفتحها في موضوع حبك أم الزواج ؟
 - وما الفرق ؟
 - ليس من الأفضل تأجيل مسألة الزواج بعض الشيء . .
 - ولكنني أحبها ، أنا واثق من شعوري ورغبتني في الارتباط بها .
 فاذا كنت تبادلني الشعور لا أرى لماذا لا أسلك بالاصول وأكتب لوالدي
 فيأتي من البلد ويطلبها من أهلها .
 قلت وأنا أضحك :
- تناقش في السياسة كأنك مولود في هايد بارك وتبقى رغم ذلك
 ريفيا طيبا ! لما لا تتشجع وتأتي معي الآن الى الكلية وتقول لها : « سميرة
 أنا أحبك هل تحبينني ؟ » .
 لحظتها سمعته ينادي ، التفت باتجاه الصوت . كان هادي يقف
 علي بعد بضعة أمتار . قلت :
- أهلا يا هادي تعال
 قال دون أن يتحرك من مكانه :
- لو سمحت أريدك دقيقة .
 قمت اليه متوجسة ، كان وجهه متكديرا .
 - ماذا تفعلين مع هذا الرجل ؟
 - لماذا تقول : « هذا الرجل » انه أمين وأنت تعرفه .
 - أجيبني على سؤالتي ، ماذا تفعلين مع هذا الرجل ؟
 - نتحدث !
- ابتسم متهمكا :
- في أمور الدراسة !؟
 - لا ، في مسألة شخصية .
 - سوسن أنت سافلة !
 قالها في هدوء صارم كأنه قاض ينطق حكما . .
 - أنت السائل !
- أدرت ظهري وعدت للجلوس مع أمين . بعد أسابيع عندما علم
 هادي بأن أمين خطب سميرة جاء واعتذر ، قال انه أخطأ ، قال انه
 بحاجة لي ولكنني كنت قد أدت ظهري ومضيت مبتعدة .

ضفطت على الجرس وانتظرت حتى فتحت لى امرأة سمراء نحيلة
تلبس ثوبا منزليا من القطن المنقوش .
- جئت لمقابلة السيدة زينب عبد الحميد .
- دعتنى المرأة للدخول .
- اسمى سوسن كمال ، هى لا تعرفنى ولكن
قاطعتنى المرأة :

- هل أبوك مريض ؟
اذن فالمرأة أمها أم أنها المريية والامر مشاع ؟ قلت بحددة :
- هل بإمكانى رؤية مدام زينب ؟
- أنا زينب يا سوسن !

حدقت فيها ، كانت المرأة التى هتفت بحميمية : « أنا زينب
يا سوسن » قد تجاوزت الستين وكان هذا آخر ما توقعته .
عندما أخبرنى أبى بالامس وهو فى غرفة العناية المركزة
بالمستشفى انه متزوج من امرأة أخرى وانه يريد منى أن أذهب إليها
قبلت رأسه ووعدهته أن أفعل ولكن ما ان غادرت باب المستشفى حتى
انفلتت بصدري دوامة عاتية من الانفعال ولم يكن أبى هو مركزها بل
أمى شاحبة الوجه تروح وتغدو فى المسر المجاور لحجرتة تذرف الدمع
وهى تعدد مزايا الزوج طوال خمسة وثلاثين عاما . كنت غاضبة
ومتمررة أكرر لنفسى أن الرجال سفهاء وأنانيون .
- يريد أن يرانى أليس كذلك ؟

- انه يريد أن يراك .
بدأت تبكى وبدأتى الامس كابوسا . أردت واجتهدت فى ايجاد شىء
أقوله ولم أجد فقممت لانصرف وقلت وأنا أصافحها :
- سأتى غدا فى الخامسة مساء لأخذك اليه .

لم أنتظر المصعد ، هرولت على الدرج . ما الذى حدث ؟ لم يطلب
منى أبى أن أتى بها اليه . فلماذا قلت لها ذلك ؟ وما الذى تعنيه لى
حتى أشفق عليها ؟

رقاد أبى مريضا هكذا بلا حول ولا قوة يوجعنى . أرغب فى
تدليله والحنو عليه ومع ذلك فزواجه من امرأة ثانية ثمرة مرة تترك

علقمها فى حلقى سواء بلعتها أو بصقتها .
مات أبى . أمى تنتحب وتلطم وتشق ثوبها وتنادى سعدا وهو
بجوارها وتبدو واهنة ومسكينة كأنها ليست خديجة هانم ، الملكة ،
اللى يستنفر ديبب خطواتها فى ممرات المستشفى كل العاملين به .
أراقبها وأبكى فى صمت ، وأعى المرأة الأخرى فأبكى أكثر .
انتقلت للإقامة مع أمى حتى انقضاء أربعين الحداد . ألها الذى بدأ
فائرا فى الأيام الأولى سكن وتحول الى حزن صاف تتركز فى قاعة
ركدة ثقيلة وداكنة كركدة القهوة المرة التى تشربها مغلية مرات
لا تحصى أثناء الليل والنهار . لم تعد تنتحب ، أو تصرخ أصبحت
شاحبة وساكنة .

بعد الأربعين بيوم واحد تشاجرت أمى مع سعد . قال لها سعد
انه سيعود للإقامة فى الاسكندرية لان السفر يوميا مجهد فقالت له
أنها تريده أن يترك عمله هناك لينتقل نهائيا الى القاهرة .
- لتكون بجوارنا ، وأيضا لأن المستشفى بحاجة لك . سعد لقد
صرت طبيبا لتدير هذا المستشفى .

- ماما أنا لا أريد ولا أقدر على ادارة المستشفى .
- كلام فارغ . . . أنت الآن رجل مسئول وعليك أن تعود الى
القاهرة لتتحمل مسئولياتك .

- ما رأيك يا ماما فى بيع المستشفى ؟
اندفعت أمى تصرخ فيه كأنه لم يتجاوز السابعة من عمره :
- اخرس ، أبوك لم يتعب فى بناء هذا المستشفى لكى تبيعه بعد
ساعات من وفاته . اخرس يا وقح !

تدخلت زينب وتدخل مجدى وتدخلت راندا قالوا أن سعدا لم
يقصد وانتهى الامر بسعد يعتذر ويقبل رأس أمى فانسالت الدموع من
عينها أما هو فكان وجهه جيريا كالحجر .

غادرت المنزل لا أقصد مكانا بالتحديد أشعر بضداع فى رأسى
وبوادر غثيان . وكانت أصوات أمى وسعد والآخرين مازالت تطن فى
رأسى . ذهبت لزيارة سميرة فلم أجدها فواصلت المشى فى الشوارع
ولم أنتبه الا وأنا أقف أمام بابها أدق الجرس . ما أن فتحت الباب حتى
أحاطتنى بذراعيها وبدأت تنتحب وتكرر :

- اخص عليك يا سوسن واحد وأربعون يوما وأنا أنتظرك ، كل
يوم وكل ساعة أقول تأتى ولا تأتى !

عقدت الدهشة لسنانى وبدأت لى المرأة غريبة الاطوار . كانت
الألفة التى تحدثنى بها وما تتعشمه من سلوكى يثير الاستغراب حقا

(تذكرت الطريقة التي قالت بها « أنا زينب يا سوسن ! » المرة السابقة كان علاقة حميمة تربطنا تجعلها ما أن تنطق بهذه الكلمات حتى ألقى بنفسى على صدرها أقبليها واحتضنتها !) هي فعلا غريبة الاطوار وهامى قد جلست ملاصقة لى وامسكت بكلتا يدى بين يديها كانت تسألنى عن زينب وسعد وامى فأجبتهما باقتضاب دون أن أفهم شيئا . طلبت أن اذهب الى الحمام وقالت أنها ستصنع لى كوبا من الشاى « أم تفضلين القهوة ؟ » « قهوة » فى الحمام وضعت راسى تحت الصنبور وتركت الماء البارد ينسكب على شعرى . سألتنى وهى تقدم لى القهوة :

- هل بللت شعرك يا سوسن ؟

عندى صداع

- هل آتى لك بمسكن ؟

- لا داعى ، سأشرب القهوة .

خيم الصمت وبدا أن المرأة غارقة فى عالمها وددت لو كانت تجلس فى المقعد المقابل تجلس فأتمكن من رؤيتها دون أن أختلس النظر اليها . كانت امرأة نحيفة بشرتها فى لون القمح عندما تلوحه الشمس تماما فيصبح كالبن الفاتح وكان وجهها رغم تقدمها فى السن يكاد يخلو من التجاعيد . كانت المرأة قد احتفظت بجمالها الخاص يؤكد شعرا أسود أملس خطه شيب قليل - جدلته فى صفيرتين طويلتين .

- وما العمل الآن يا سوسن ؟

تطلعت الى بشىء كالرجاء ولم أجد ما أقوله . خيم الصمت ثانية ثم قالت :

- أنت لا تعرفين ، لم يكن زوجي فقط ، لعبنا معا ونحن أطفال ولما كبرنا بدا وكأن الدنيا لا تأخذ كل منا فى طريق الالى تعيدنا فنلتقى .

قلت انى ذاهبة ، لم تستبقنى .

لم أتم طول الليل . تارة أشعر أن سلوكى معها كان قاسيا وتارة أخرى أشعر اننى محقة ويملؤنى الغضب وانا أنتصر لنفسى « هذه المرأة فى النهاية تتحدث عن علاقتها بأبى ، علاقة كانت امى الطرف المخدوع فيها عمرها يكمله » أقول اننى قسوت ثم أقول اننى لا أشاهد فيلما سينمائيا على شاشة تعود قماشية وبيضاء ما أن تتوقف آلة العرض وتضاء الانوار ، لست حجرا ! أشعر أن الواجب والانسانية كان يقتضيان أن أنصت لهذه المرأة الوحيدة ثم أضيق بالامر كله والعن

اللحظة التي اطلعتني فيها أبي على سره وأقرر أن ما فعلته هو العقل بعينه . مات أبي ودفن فليدفن سره معه . لن أذهب الى هذه المرأة بعد ذلك . لا أحد يسعى الى الالم بقدميه ، ولتذهب الى الجحيم أو الجنة ، لا شأن لي بها !

ورغم ذلك الرأي الذي بدا أنني استتكنت اليه في نهاية ليلة مؤرقة فقد ذهبت اليها ما ان انتهيت من عملي في اليوم التالي . قلت لها بصراحة ربما فاجأتها أنني جئت لاعرف منها حكايتها مع أبي . « لكي أفهم ، وربما لو فهمت أتصرف بشكل أكثر انزانا » .

بقيت في بيتها من الرابعة بعد الظهر حتى الساعات الاولى من الفجر وعندما أردت الانصراف لم تسمح لي : « لان الوقت متأخر ولا يصح أن تنزلي بمفردك في هذه الساعة » ثم بشيء من تلعلم : « لست ضيفة في هذا البيت . . » وكادت أن تكمل ثم توقفت .

يومها حك لي زينب عبد الحميد قصتها مع أبي كأنها فيلم سينمائي طويل شاهدته في جلسة ممتدة لم تقطعه سوى فواصل قصيرة شربنا فيها الشاي والقهوة .

« كان جدك صفوت يسكن في احدى الشقق بعمارة سكنية من أربعة طوابق بالاسكندرية وكان أبي رحمه الله يعمل بوابا بنفس العمارة ، هاجر من أسوان في شبابه بحثا عن لقمة العيش ثم تزوج بأمي وهي من الاسكندرية وخلف منها أربعة كنت أصغرهم . كنا جميعا نساكن حجرة واحدة بالطابق الارضى للعمارة . وكان أبي رغم فقرنا شديد الكرم يحسن وفادة الضيوف من أقارب ومعارف وبلديات وأغراب يعاملهم معاملة الاهل لانهم أقارب للمعارف والبلديات ، كان أميا يؤمن بالله والتعليم . يكرر علينا : « لو تعلمتم يا أولاد تفتح أمامكم كل الابواب المغلقة » وأذكر أنه عندما نجح أخي محمد دون تفوق ضربه أبي ضربا مبرحا وهو يصيح فيه هائجا « يا حمار يا ابن الكلب أضعت على نفسك المجانية فكيف لي أن اعلمك ! » .

كانت أمي تقضى النهار في غسيل ملابسنا واعداد أكلنا الذي يشاركنا فيه اى ضيوف مفاجئين وتمسح سلم العمارة في حين يقضى أبي اليوم في شراء لوازم السكان ليجمع قروشاً اضافية تفي بلوازم تربيتنا وتعليمنا و « اللقمة الهنية التي تكفي مية » .

كان كمال طفلا وحيدا وكنا أربعة وكان يجب أن يلعب معنا في بئر السلم أو أمام البيت . نتفق ونختلف ونتشاجر ونتصالح كعادة الاطفال وعندما يعود أبوه من عمله ويقول له « اطلع يا كمال لتأكل

يقول : « سأكل عند عم عبد الحميد » فأسمع ابوه يقول له : « أنت وش فقرأ ، ولكنه يتركه يأكل معنا .

كنا نتناقش أنا وكمال . هو يقول أن الاولاد أحسن من البنات لانهم أقوى وأذكى ، أنا مثلا أشطر منك فانا أقرأ الفرنسية وأكتبها وأنت حمارة لا تقرأين الا فى كتاب المطالعة الرشيدة ، فأقول له : « أنت أكبر منى بستنتين ومع ذلك أنا أستطيع عبور شارع الترمواى وشراء صندوق من زجاجات المياه الغازية أجمله على رأسى وأعود به وأصعد الى الطابق الرابع عندما تطلب منى أمك ذلك ، وأنت لاتستطيع ! » كان كمال يذهب الى « كلية سان مارك » تاتى سياره المدرسة لآخذه كل صباح فينزل بالزى الخاص بالطلاب وفى يده حقيبة جلدية ويركب . أما أنا واخوتى فكنا نذهب الى المدرسة الابتدائية القريبة سيرا على الاقدام بملابسنا العادية نحمل كتبنا فى أكياس من « النمر » تصنعها لنا أمى .

ثم تركنا البيت ، صممت المرأة ، ترك أبى عمله بسببى مسكت مرة أخرى ، بسببى أنا وكمال . لم يحدث شئ . ولكن أبى كان صارما وخائفا أيضا ، وربما كان على حق . كانت والدة كمال قد نادى على وطلبت منى شراء أغراض من البقال . اشتريت وصعدت لآعطيتها ما طلبت ولكنها لم تكن فى البيت . قال كمال انها خرجت ودعانى للدخول . كانت أمه تكره أن يدعونا الى البيت وربما كان ذلك هو السبب الذى جعله يدعونى وجعلنى أقبل . دخلت معه الى غرفته وأجلسنى على السرير وأتى لى بالعابه ورحنا نلعب ونضحك . جاءت أم كمال وفتحت الباب ورأتنا نجلس متجاورين على السرير فوبخته وطرقتنى . ولا أدرى ما الذى قالت لآبى ولكنه فى المساء انهال على ضربا حتى أسال دمي وقال : « لو سمعت انك دخلت بيتهم سأقتلك ! » وفى اليوم التالى أعلن أنه سيبحث عن عمل آخر واتنا سننتقل . . وانتقلنا كنت فى الخامسة عشرة عندما عرض على أبوك الزواج للمرة الاولى . ضحكك وقلت « كيف ؟ » قال « أخطبك وعندما أعود طبيبا من انجلترا نتزوج ، كنا صغارا ولكنى كنت أحبه . دخلت مدرسة الحكيمات من أجله . سافر ليدررس الطب ويصبح طبيبا وأردت أن أكون طبيبة مثله ولم تمكننى الظروف فدخلت مدرسة الحكيمات . غاب أبوك تسع سنوات زار فيها مصر أربع مرات . كان شامبا وسيما لم أر أحمل منه ولكنه عندما عاد بعد سنتين من سفره كان يبدو كالنجوم الذين نراهم فى الافلام الاجنبية : الشارب الاقصر

الصغير ، الشعر الناعم المفروق من الجنب بعناية والملابس الانيقة .
قال لي انه يحبني ولا يريد الا أنا ولكني كنت متوجسة يحدثني قلبي
انه لم يعد لي . وعندما سافر بعد زيارته الثالثة بكيت بحرقه من يودع
الى الابد وصدق حدسي . أصبحت رسائله كالاعباد لا تأتي الا مرة في
السنة . وعندما مرض أبى قال لي وهو على فراش الموت : « يا زينب
جاءك أكثر من عريس ورفضت . ان كنت تنتظرين كمال فانت واهمة .
البهوات أنذال لا يحكمهم شرف ولا تربطهم كلمة » فقلت له « أنا لا أنتظر
أحدا وكمال تربى معنا وهو كأخى لا فرق ، وكنت أكذب !

عندما عاد أبوك من الخارج نهائيا لم يخبرني لا قبلها لانتظره في
الميناء كما في المرات السابقة ولا بعدها فالتقي به ثم عرفت أنه خطب
وتزوج . وكنت أعمل حكيمة في مستشفى بالرمل . في الاول كذبت
الخبر ثم مرضت . . . كانت أياما صعبة استمرت ثلاث سنوات ثم
تزوجنا وكان ذلك منذ ثلاث وعشرين سنة . احتفظت بعملى وبقيت في
الاسكندرية لعدة أعوام ثم أصر أبوك على تركي العمل وانتقالي الى
القاهرة . استأجر لي هذه الشقة وانتقلت . والآن ذهب كمال ولم يعد
هناك معنى للبقاء .

دخلت لانام وأنا في حالة من الأعياء الشديد وقررت اننى سوف
أقضى ليلة ثانية من الارق بعد كل ماسمعت وأيضا لعدم تعودى على
المكان ولكن ما أن وضعت رأسى على الوسادة حتى رحمت فى سبات
عميق .

طوال أسبوعين كنت أذهب الى عملى ثم أذهب الى أمى أقضى معها
بعض الوقت ثم أعود الى بيتى وفى الطريق أتوقف عند بقال مجاور
أتصل تليفونيا بزینب عبد الحميد « هل أنت بخير ؟ هل تريدین شيئا؟
اذن مع السلامة » أفعل ذلك يوميا وبشكل آلى وأعرف أن الساعات منذ
مغادرتي البيت فى الصباح حتى عودتى اليه بعد المغرب ليست الا
طريقا الى لحظة أقصدها أحتلى فيها بنفسى وأغربل هذا الكم الهائل
الذى اختلطت فيه حبات القمح الأخضر بالحصى والقشر والطين الى حد
بدا معه أنه لا قمع هناك وصرت أتساءل ان لم تكن الحكمة تقتضى أن
ألقى بذلك كله الى سلة المهملات وأنتهى .

كان أبى قد استطاع أن يحتفظ لاكثر من ربع قرن بزوجتين
احدهما فى العلن معترف بها ولا تعلم ، والثانية فى الظل لا يعرف
بوجودها أحد وان كانت هى تعرف بوجود الجميع ، فمن الطيب ومن
الشرير فى هذه الحكاية ؟ وأى الزوجتين ، الاولى أم الثانية ، هى التى
أخذت ما ليس نها ، وأيهما الاولى أصلا وهل زواج أبى من زينب يؤكد

«ندالة البهوات» أم يبرئه شخصيا من الندالة رغم كونه من البهوات؟! كانت الحكاية التي قصتها على زينب عبد الحميد تطرح على شيئا كاللفز فهل كانت لغزا رخيصا أم انها الحياة تؤكد سقوط المسطرة والخط المستقيم؟ وهل كانت المرأة صادقة فيما سردته وما هي حقيقتها؟ هل هي المرأة التي أحبت بوفاء وعمق فأعطت كل شيء وارتضت حياة الهامش بقرب الحبيب أم انها الفتاة الفقيرة اشرايت بعنقها تطلعا الى الفتى الثرى الوسيم فما نالها الا تقطع جذورها فى الارض وذبولها بلا ثمر؟ وكيف لى أن تعامل مع هذه الحكاية بموضوعية المشاهد الخارجى وأنا طرف لان أبى وأمى طرفان فيها؟ وهل يكون موقفى هو نفسه لو كنت ابنتها ولست ابنة خديجة؟

تنهكنى الاسئلة فازداد نحولا بشكل ملحوظ يرده الناس الى حزنى على أبى وتؤكد سميرة أن هناك ما يشغلنى وأخفيه « فما الموضوع؟ » أريده أن أحكى لها وأخشى أن تلقى فى وجهى بحكم قاطع من أحكامها: « أبوك نذل والست زينب بلهاء أضاعت عمرها بلا ثمن! » لمن أحكى اذن؟ قررت السفر الى سعد فى الاسكندرية . هو لا يعلم شيئا ولكن الامر يخصه فالرجل أبوه والمرأة زوجة أبيه وأنا أريده التحدث مع من يفهم .

سافرت الى الاسكندرية واستقبلنى سعد ورائدا فى محطة القطارات . فى الطريق الى البيت وجدت سعدا منكمشا وعازفا عن أى حديث ، وكل ما قاله قاله تهذبا ومجاملة فماذا حدث؟ وعلى العشاء لم يقطع صمتنا سوى صوت الشوك والملاعق والسكاكين وصب الماء فى الاكواب . تعشينا ورفعنا الاطباق عن المائدة ووقفت مع رائدا فى المطبخ وهى تعد القهوة .

— ماذا حدث بارائدا . . سعد ماذا دهاء ؟

— منذ عاد من القاهرة وهو منكمش ومعرض . لا يذهب الى عمله ويظل نائما حتى الثالثة بعد الظهر وعندما يستيقظ لا يخرج وفى الغالب يشكو من صداع حاد ويقول أن الضوء يصيبه بالفتيان . يفضل أن يجلس وحده بلا ضوء فى حجرة النوم وعندما ألح عليه فى الجلوس معى فى الصلاة يجلس كالفانج أسأله : « هل نمت يا سعد؟ » يقول : « لست نائما ، أسمع ماتقولين ، واصلى حديثك » ولكنى أعرف انه لا ينصت .

مسحت رائدا دمة بظهر يدها .

- سعد شديد الحزن على وفاة عمى كمال ، هذا صحيح ، ولكن
الصحيح أيضا أنه معرض عنى ولا يريدنى .
- غير صحيح ، أنه يجبك ويحتاجك . هو متعب ، هذا كل ما فى
الأمر .

ما أن شربنا القهوة حتى قالت راندا : « تصبجان على خير ،
وانسحبت الى حجرة نومها وطلبت أنا من سعد أن تنتقل للجلوس فى
الشرفة . سعد يقطن فى الطابق العاشر بمساراة لا تبعد كثيرا عن
الشاطئ . فى ضوء النهار يمكن رؤية البحر من زاوية بعينها من
الشرفة أما فى الظلام فيبقى البحر حاضرا عبر صخب الامواج وصوت
ارتطامها بالشاطئ والرائحة النفاذة .

- ما بك يا سعد ؟

- كما ترى !

- لم نعد صغارا . . والموت

- ليست هذه هى المسألة .

- ما الذى تريده يا سعد ؟

خلع نظارته فبدت عيناه الخضراوان تماما كعيني أبى وان تميزتا
عنهما بمسحة طفولية لم يفقدها مع الوقت .

- المشكلة يا سوسن اننى لم أعد أريد شيئا ، لا أريد أى شيء !

ليست المشكلة فى ذهاب بابا ، المشكلة فى ماما . لا أدرى من

أين أتتها هذه القدرة العبقريّة على تحويل الأشياء الى رماد ، حبي لها ،

ارتباطى بها ، أحلامى ، فرحى ، حزنى ، كل شيء .

- هذا ما فعلته فى الماضى ، أنت الآن مستقل عنها ، هى فى

القاهرة وأنت فى الاسكندرية فلماذا الاكتئاب الآن ؟

نظر الى بمزيج من عتاب وتساؤل :

- هل تفضين الطرف عن الحقيقة ؟

- سوف أعد فنجانا من القهوة ، هل آتيك بفنجان ؟

قمت الى المطبخ . ملأت الدلة بالماء ثم القمتها البين . ما الذى فعلته

أمرى بسعد ؟ ولماذا فعلت ما فعلته وهى تحبه أكثر منى ومن زينب ؟

فارت القهوة ولوثت موقد راندا الابيض الناصع فانهمكت فى البحث

عن شيء أنظفه به . نظفته وغسلت الدلة وملأتها بالماء والقمتها مرة

أخرى بالبين ووقفت أتابعها بتركيز حتى لا تغور . سعد متعب لم

أره هكذا أبدا . لا مجال للحديث عن زينب عبد الحميد أم أحداثه في الامر لعله يتشغل به عن حزنه واكتنابه ؟ فارت القهوة للمرة الثانية فبدأ لى أنى أصلح لمشهد فى فيلم فكاهى صامت ومع ذلك كنت حانقة على نفسى وأنا أعيد الكرة وأنظف الموقد وأملا الأدلة . . فى المرة الثالثة لم تفر سكبتهما فى فنجالين حملتهما الى الشرفة . قال سعد :

— كلما أنجزت أو حتى أردت انجاز شيء جميل دمرته أمى ودمرت معه جزءا منى . نسفت حلمى فى أن أكون فانانا وعندما ذهبت الى باريس ، أتذكرين ؟ أعادتني كالكلب . جرتنى من رقبتي من الفندق الى الطائرة والمصيبة اننى تبعتها ! كتبت لصدىقتى الفرنسية التى ودعتها فى المساء على أن نلتقى صباح اليوم التالي ، كتبت لها أشرح وأفسر وأعتذر مرة ومرتين وثلاث ولم تجب سوى برسالة من سطر واحد : « لقد خذلتنى وأعتقد انك خذلت نفسك أيضا ، » .

— سعد كل ذلك انتهى ، أنت الآن مستقل بحياتك و
— أية حياة ؟! الحقيقة أن صديقتى الفرنسية كانت رغم صغر سننها حكيمة أنا فعلا خذلت نفسي وها هى حياتى الآن ، بين يدي رماد !
— ولكنك طبيب لك دور ثم ان هناك راندا والطفل القادم .
— طبيب دون المتوسط وزيجة لم أتحمس لها وطفل لا أريده . . .
ما أجملها من حياة !

كان وجهه شاحبا وشفتاه مرتعشتين وكان يحدث فى كأنما يشهدنى على ما يقول .

لم ينطق أى منا بكلمة بعد ذلك . جلسنا ساكنين على خلفية ارتطام الامواج بالشاطئ وكسارات الموج حتى قمنا لننام .
لا أدري ما الذى أصابنى ، اعترتني رغم سخونة جسدى قشعريرة فتدثرت بالغطاء . رأسى يوجع وصدري ثقيل كأنما أحمل عليه حجرا وعظامى تؤلمنى أحس باعياء شديد يجعل مجرد تقلبى فى الفراش مهمة صعبة أتجنبها . بقيت متعبة ومؤرقة فترة بدت لى طويلة لا نهاية لها وعندما غفوت كان نومي متقطعا تخللته الاحلام والكوابيس .

فى الاول رأيت أمى . كانت أصبى وأحلى تلبس ثوبا ربيعيا من القطن المنقوش باللوان الزاهية . كانت تضحك . ثم جاء شرطى وقال انه يريد أن يحقق فى حادثة القتل واقتادنا جميعا للتحقيق .

ثم دق ساعى البريد الباب . قال جئت لاعتذر عن الخطأ فى البرقية ليس أبوك الذى مات ولكنها أمك . سألتنى : « ألسنت ابنة ألسنت ؟ » ، أجبت : « لا ، أنا ابنة الجارية ! » .

رأيت أبي قال : « ليس بإمكانك أن تكوني طيبة يا سوسن دون أن تدخل المشرحة » . دخلت مكرهة وعندما كشفوا الغطاء عن الجسد المسجى بدأت أصرخ : « لا أريد . . . لا أريد ! » .

ولكن سعدا لم يصب بسوء . كان يقف بالقرب مني ويسألني هل تشعرين بتحسن ؟ « أنحنى على وابتسم بعذوبة فبدا وجهه وديعا وحانيا . راندا أيضا هنا . لا ليس حلما بل مشهدا واقعيا . أيقنت من ذلك فلانتبهت لكوني مريضة في السرير .

لزمت الفراش عشرة أيام . في اليومين الأولين اعترتني حمى ثم انخفضت الحرارة الى المعدل أقرب للطبيعي وان بقي الاعياء وآلام الرأس والصدر . وجاءت أمي من القاهرة وشعرت للحظة أن حالة من التواؤم تحتويني وكل من في البيت .

- انى ذاهبة !

قالتها سميرة وهى تفادر مقعدها وتخترق صفوف الجالسين فى القاعة قاصدة البسبب . لحقت بها على الدرج وقلت بشئ من احتجاج :

- كنت أرغب فى الاستماع الى المحاضرين حتى النهاية .

- ولماذا لم تبقى ؟

- لانك قمت فلماذا قمت !؟

- لأن مرارتى لم تعد تحتمل !

سرنا فى الشارع الكبير المؤدى الى الميدان . لم نفل شيئا ولم اقل شيئا . وعندما وصلنا الميدان اقترحت ان نجلس فى مقهى لتناول الشاى ولكنها قالت انها تفضل العودة الى البيت . اقترحت ان تأتى لقضاء الليلة معى ، رفضت .

ربما أخطانا فى الذهاب الى تلك الندوة . كان الامر كئيبا وسميرة على حق . كان المتحدثون ثلاثة احدهم وزير سابق والثانى كاتب سياسى معروف والثالث نقابى بارز قضى ثلاثة عشر عاما من عمره فى معتقل الواحات لنشاطه السياسى . ربما دفعنا للذهاب حب استطلاعنا بشأن اجتماع ثلاثتهم فى تلك الندوة وان كانوا سيقدمون مواقف متباينة ام عكس ذلك . بعد دقائق من بدء ثالث المتحدثين وهو خريج الواحات غدا واضحا ان الامر « عكس ذلك » .

ما الذى يجعل مناظلا قديما يصاب بالحول فيفشل فى رؤية الحقيقة التى لا تفوت تلميذا منتبها بالسنة الاولى بالجامعة ؟ .

اختلفت مع سميرة حول الدكتور عبد الموجود اسماعيل حتى بعد ان قطعت علاقتى به ، وكان أمين ينصاصرني فننبرى معا للدفاع عنه وكانت هى تكرر بعناد « انه انتهازى وسوف تثبت لكما الايام ! » اثبتت الايام انه أكثر تعثرا مما قدرت وكان ينشر تلك المقالات المطولة فى الجرائد يطلق فيها الفتاوى والتحليلات التى تنتكر لأبجديات الصراع الاجتماعى الذى كان هو نفسه اول من فتح عيوننا عليها فى الجامعة . كف أمين عن الدفاع عنه وكدت أنا أيضا أكف لولا شراسة سميرة فى هجومها عليه الذى كان يستفزنى للرد ، أقول لها :

- انه يخطئ لا اختلف معك فى ذلك ولكنه حسن النية وهو

لا يقول ما يقوله ارتزاقا ، انه يجتهد فيما يعتقد انه الصواب وهذا انساني ومشروع !

فتشتعل سميرة غضبا وتلقى باجاباتها كمدفعية ثقيلة :
- لا يا حبيبتي هذا تعرف ! عندما يلبس عبد الموجود اسماعيل
عمامة مفتى الديار ويشرع في وجوهنا ما يدعى انه مفتاح الحقيقة
وبرهنا بمركزه العلمي الى حد تكذيب انفسنا والمشى وراءه الى سكك
الخيبة والندامة لا أقول مسكين اخطأ دون قصد وهذا انساني
ومشروع بل أقول يميني ومخرب وابن ستين كلب !

وصلت الى البيت وأعددت لنفسي كوبا من الشاي وشريحة من
الخبز بالجبين وقد تملكني السؤال « من اين تاتي الفشاوة على
العيون ؟ » كان الجالسون على المنصة هذه الليلة سواسية مختوم
على قلوبهم . اقلقني الامر واغاظني ولكني لم أشعر بذلك الغضب
المر الذي شعرت به سميرة فهل موقفها هو الموقف الطبيعي الاصيل
أم ان المسألة تار شخصي يلون رد فعلها بهذا العنف القاتم ؟ هل
حكاية أمين هي المحرك أم ان هذه الحكاية نفسها هي الدليل والإمارة
انها على حق في مرارتها وعنف ادانتها ؟

أويت الى فراشي وحاولت النوم ولكنه استعصى : اتانى بدلا من
النوم أمين حاضرا كأننا لم نواره التراب قبل عامين تميزه نفس
النظرة الأسرة التي تمتزج فيها الدهشة بشيء من عتب .

عرفت أمين قبل ان أعرف سميرة وهو الذي حدثنى عنها عندما
وقع في حبها . كان قد جاء الى العاصمة من قريته في الريف حاملا
سلة بها ملابسه ونسخة قديمة من الف ليلة وليلة وكتاب المعذبون
فى الارض لطف حسين . . وبقي حتى أن درس فى الجامعة وتخسر
منها على حياته الريفى . لم نواته الجراة على : قول كلمة أحبك
لسميرة . . عرض عليها الزواج فوافقت فأرسل الى والده فى البلد
ليأتى لخطبتها وأتى ، وكانت المرة الاولى التى يزور فيها القاهرة .
يوم الخطبة قال وهو يضحك : « لا أخفى عليكم عندما أخبرنى أمين
برغبته فى الزواج من زميلة له فى الجامعة كدت أقول له « مالنا نحن
وبنات مصر » ثم قلت لنفسي « أنت أرسلت ابنك الى القاهرة ليتعلم
ويتنور أتركه يختار من تليق به » ثم وهو يواصل ضحكته ويربت
بيده على صدره « وكان نعم الاختيار ونعم النسب » فتسورد وجه
خالتي سيدها وابتسم عم مصطفى بابتداد ، أما سميرة فاجابت
ضاحكة : « لا تتسرع يا عمى ، انتظر عندما نعيش معا وستكتشف
ان زوجة ابنك ليست بسيطة ! »

ولكنهما لم يعيشا معا . ذهب أمين ، دهمته سيارة وحمله المارة الذين لا يعرفونه غارقا في دمه . هل كان قضاء وقدرًا ؟ هل كان سير محذفا في همه الثقيل فلم ير السيارات السرعة في الطريق أم قصد أن يقتل نفسه وقد تمكن الياس منه ؟ .

« انتحر ! » تقول سميرة مستنكرة وهي تكاد تثب متنمرة على من يجروء على النطق بها . « مستحيل لأنه حدثني بالتليفون قبل الحادث بساعة واحدة وقال لي انه خرج لتوه من بيت عبد الموجود قال : « تشاجرنا قلت له انه سافل فانتفض على وكاد يكسر ذراعي وكادت أطبق على عنقه ثم قلت لنفسى عمرك خسارة يا ولد بضيع على كلب ! » فكيف يقول هذا الكلام ان كان ينوى الانتحار ثم ان أمين ليس الانسان الذى ينهى حياته بيديه . دمه في رقابهم مهما قالوا وادعوا ! » .

في الليلة السابقة على الحادث التقى بها أمين وأخبرها انه سيذهب الى عبد الموجود اسماعيل لينقل له رايه في كتابه الاخير . حاولت سميرة أن تثنيه قالت له لا داعى ولا فائدة وربما كان من الأفضل ان يفتضح أمره هو وأمثاله لكى لا يمشى وراءهم أحد ولكن أمين أصر : قال ان من حقه وواجبه أن يسمعه ما لديه « هو يعلن نفسه مفوضا باسم الغلابة ، اليس كذلك ؟ اريده ان يعرف اننى والعشرات من أمثالى نعتقد انه يبيع الغلابة بثلاثين قرشا ! » . سميرة موقنة أن أمين لا يمكن أن ينهى حياته قاصدا وأنا اتساءل لانى رأيت كيف كان أمين في الشهور الأخيرة مرهقا الى حد الجنون فهو مصاب بصداع يجعله غير قادر على فتح عينيه على اتساعهما . او يشكو من آلام المعدة وبشعور قائم بالفئيان او مشتعلا بالغضب ينهى نقاشه بالسباب وأحيانا بالتشابك بالأيدي قلت لسميرة :
— هل يمكن أن يكون أمين متعبا الى هذا الحد لمجرد الاختلاف مع ما يطرحه رفاقه من أفكار سياسية ؟ .
استفزها كلامى :

— تطرحين الأمر بشكل غريب عجيب كان الاختلاف على طريقة لهو السبانخ . ليست المسألة اختلافا انه شسعور صدام بخيبة الأمل والخذلان كأنك كنت تتبعين كبيرا انتميت له وآمنت به ثم اكتشفت انه فواد يبيعك مع أول منعطف ! .
كدت اقول أنها تبالغ ولكنى لم أجروء فقد كانت منفعلة ولم أرغب في تعقيد الأمور .

سميرة أصفر منى ومن أمين ومع ذلك فهي أكثر رسوا وحسما

قررت منذ سنوات ان عبد الموجود انتهازى وانه وجماعته يصلحون .
لم تقبلهم فى اى وقت وكانت تنظر اليهم بعين الشك . ساعتها لا انا ولا
امين صدقناها فهل كانت على حق منذ اللحظة الاولى ام انهم كانوا
يصلحون ثم فسدوا ولم يعودوا كذلك ، وهل كنا انضح منها ام
كنا اغبياء ؟ .

كيف يأتى النوم ومن اين يأتى والاسئلة تتكاثر على وتطن فى راسى
وتعذب كانها ربات العقاب .

كان الر - الثلاثة الجالسون على المنصة هذا المساء شديدى
الاختلاف فى . هم فالوزير السابق ابيض له رأس كالبيضة يؤكد
شكلها صلعة لثة اللعنان كان فى كامل ملابسه الرسمية كأنه ذاهب
لعقد قرانه ، أما الكاتب فكان شعره الرمادى خشنا مهوشا أطول
قليلا من المعتاد وكان يلبس سترة صيفية قصيرة قصيرة الكمين عليها
اثر كرمشات تشى بأنه عندما خلعها فى الليلة السابقة نسيها على مقعد
جلس عليه بعض أفراد الأسرة . أما النقابى القديم فقد كان رجلا
مسنا تكثر فى وجهه التجاعيد يميزه شعر قطنى ويلبس قميصا
سمنيا بكمين طويلين ويزرر قميصه حتى أعلى الرقبة رغم أنه لم
يكن يلبس رباط عنق .

بدوا مختلفين فى الشكل والملبس وحتى فى أسلوب الحديث فقد
تحدث الكاتب بالفصحى السلسة وتنقل الوزير ما بين الفصحى
والعامية وكان يخطئ فى الحالتين أما النقابى فكان كلامه بعامية
بسيطة ومؤثرة . ورغم الاختلاف كادوا يتفقون فيما قالوه وكانهم
قراوا على نفس الشيخ واتفقوا مسبقا فيما بينهم .

قبل سنوات قليلة كان مشهد كهذا كفيل بهز ثقتى فيما اعتقد ،
أقول ما دام هؤلاء الناس على اختلاف مواقعهم قد اتفقوا على قول
هذا الكلام فلا بد انه الحقيقة ولا بد أننى المخطئة أشسك فى نفسى
وأكذبها . الآن لم أعد أفعل ذلك ، وعاد السؤال الذى يشغلنى هو :
« ما الذى يجعل اليمين واليسار والوسط يجمعون على نفس
الشيء ؟ » حين اطرح السؤال على سميرة تجيب بلا تردد « كلهم
يمين ، لماذا لا تبصرين ما أبصر ! » تكرر فى احتجاج : « صدقينى ،
لماذا لا تصدقينى ؟ ! »

الامر المدهش فى سميرة أنها رغم شكوكها الغالبة تثق ثقة مطلقة
فى الناس وتظل تكرر : « الناس حلوين مثل الفل » وعندما أقول

لها وأنا ابتسم : « وأولئك الذين تسلطوا عليهم لسانك بلا رحمة
اليسوا ناسا!؟ » فتجيب : « أتحدث عن الناس العاديين الذين لا
يدعون شيئا ، همومهم كثيرة وعيوبهم كثيرة ، ولكنهم لا يدعون أنهم
سفراء ومبعوثون وقادة وثوار وقابضون على حقيقة الدنيا والآخرة
.. عندما أقول ناس أفهمى انى أقصد الغلبة ! » فاستغرب منطلقها
واستغرب ايمانها المطلق بما تقول ، وأستغرب أكثر تجاور اليقين
والوسواس فى صدرها . أحيانا أقرر انها حادة ومتطرفة وأحيانا
اتساءل ان لم تكن أعفى منى وأنضج وأكثر جراءة!؟ .

قمت بأجازتي السنوية وعندما عدت الى عملي ابلغت ان سيده
تدعى زينب عبد الحميد اتصلت تليفونيا عدة مرات فقدت انهما
تريدنى لامر ضرورى . ذهبت لزيارتها بعد انتهائى من العمل وعندما
طرقت بابها فتحت لى فتاة لا اعرفها ، فهتت منها انها تقوم بلوازم
البيت وترعى زينب عبد الحميد التى كانت تلازم الفراش منذ
اسابيع .

وجدتها ترقد فى سريرها وبدت لى متوجسة من حالتها الصحية
وان لم ار فيها ما يدعو للتوجس . كانت اكثر نحولا وبوجهها شحوب
وشىء من الوهن ولكنها تحدثت معى بشكل عادى وناذت على الفتاة
التى كان اسمها نادية وطلبت منها ان تعد لنا القهوة وعندما قمت
للانصراف اصرت على مرافقتى الى الباب .

زرتها مرة اخرى بعد اسبوع وتأكدت انها تواظب على ما وصفه
لها الطبيب من دواء وأكدت عليها ان تتصل بى لو احتاجت أى شىء .
لم تكن صحتها قد تحسنت ولكنها ايضا لم تكن قد تدهورت . قبل
ان انصرف كتبت عنوان البيت للشغالة ورقم تليفونى فى العمل .

بعد يومين استيقظت على طرق محموم على الباب ولما فتحت
وجدت نادية باكية ، قالت ان زينب عبد الحميد استيقظت قبل
ساعتين وقامت الى الحمام وتقيات ثم سقطت فى غيبوبة . وكان
التاكسى ينتظر بالباب .

وجدتها فى السرير مغمضة العينين بلا حراك . كانت فعلا فى
غيبوبة : اتصلت بطبيب من زملاء سعد . جاء ثم جذب الفطاء على
وجهها وامسك بيدي وهو يصحبنى الى خارج القرقة ويقاق الباب
عليها : « انها ميتة يا سوسن ! » « ميتة ... كيف ! ! » « ميتة ! »
كنت قد اخبرته انها والدة صديقة لى مسافرة فى الخارج . طلب
منى بطاقتها ليستخرج شهادة وفاة وذهب .

الباب معلق على المرأة التى فارقت الحياة ونادية تنحسب وانا
افكر : « ما العمل الآن ؟ » لم يكن امامى الا سميرة . اتصلت بها
فى مكتبها اهتمتها بما حدث . قالت : « سانشرف » بعد ساعة
كانت سميرة عندى . قالت انها مرت بالبيت واخبرت اهله ان امرأة
من معارفنا توفيت وانا فى مقام اولادها المسافرين فى الخارج . »

امى ستلحق بى بعد قليل ، رابى ذهب ليقوم باللازم «
- سوسن لم تقولى لى أبدا أن لايبك زوجة ثانية ؟
- لم أعرف بالأمر الا العام الماضى ...
- العام الماضى ؟!

توقعت أن تسألنى أكثر ولكنها لم تفعل وجلسنا صامتين حتى جاءت خالتى سيدة وفى أعقابها عم مصطفى بصطحب امرأة بدينة متوسطة العمر تلبس ثوبا اسود وتحمل فى يدها لفافة كبيرة ورجلان يحملان نقالة معدنية ودخل أربعتهم الى الحجرة المغلقة . ثم خرج عم مصطفى والرجلين وبقيت المرأة البدينة التى سمعتها تطلب من نادبة أن تسخن ماء وتضيف بلهجة قوية آمرة : « أريد المساء دافئا وليس شديد السخونة !. » ثم « نادى على الستات » .

دخلنا الحجرة . كان الرجال قد أفسحوا مكانا للنقالة المعدنية ونصبوها . أما زينب عبد الحميد فكانت على حالها فى السرير مقطأة كما تركها الطبيب . وكانت السيدة البدينة قد جلست على مقعد مجاور للسرير وفتحت للفاقة التى آمت بها . كان بها امتار من الحرير ومنشفة وزجاجة ماء ورد .

أمسكت المرأة بخيط ولضمته فى ابرة ناولتها لخالتى سيدة التى أمسكت بقطعتين من القماش الأخضر وراحت توصلهما ببعضهما ليصبح عرض القماش مزدوجا . أعطتنى المرأة قماشاً أبيض وأعطت مثله لسميرة فبدانا نحذو حذو خالتى سيدة . كنا نعمل فى صمت لم يقطعه الا صوت المقص عندما أمسكت المرأة به وأعملته فى قطعة من القماش . وكان الهواء فى الحجرة ثقيلًا كأنه مادة تتببس فى الرنتين وتتحول الى حجر .

ثم أحضرت نادبة الماء وتعاونت خالتى سيدة مع المرأة البدينة فى نقل زينب عبد الحميد من فراشها الى السرير المعدنى ثم خلعت عنها ملابسها وخاتمتها الذهبى الذى كان فى بنصرها الايسر وسلسلة تنتهى بحلية من الذهب على شكل قلب . وضعت المرأة اللابس جانبا وأعطت الحلى لخالتى سيدة التى أعطتها لى فوضعتها فى جيبى . كانت زوجة أبى مسجاة أمام عيني عارية تماما . بدت لى نائمة سوف تصحو بعد قليل حتى أننى جفلت عندما سكبت المرأة دفعة ماء من كوز معدنى على الجسد الساكن وبدأت بتصبين الشعر والوجه والأذنين والعنق ، تصبن ثم تسكب الماء فى دفعات قوية وهى تردد بصوت جهورى :

لا اله الا الله

لا اله الا الله
في الموت الشهادة وساعة الولاده
لا اله الا الله

ثم تنقل الى الصدر والذراعين والبطن والفخذين والساقين
تصبن وتفضل بالماء :

انزلى قبرك ، سلمى على اهلك
قوليلهم آتسناكم يا عباد الله
لا اله الا الله

كانت الدموع تغطي وجه خالتي سيدة وهي تنحنى على الماء
تفترف منها وتسكب على الجسم المسجى وتكرر بلا انقطاع :

لا اله الا الله
لا اله الا الله

والمرأة السمينة تواصل عملها تصبن الجنب الايمن والظهر
والمقفي ثم تصبن الجنب الايسر وتصب الماء وهي تردد :

مقعدك مقعد الكرامة
خرجتك خرجة الشرف
لا اله الا الله

ثم تحرك يدها بايقاع متسارع تملأ الكوز وتلقى بما فيه بقوة
المرءة تلو المرءة على الجسد كاملا من شعر الرأس حتى أصابع
القدمين :

لا اله الا الله
لا اله الا الله
لا اله الا الله

ويبدو الصوت كجوقة كاملة رغم صمتي وصمت سميرة وصمت
نادية التي التصق ثوبها بصدرها مبلا بالعرق ورذاذ الماء المتطاير
والدموع .

جفت المرأة السرير المعدني بمنشفة ثم جسد زوجة ابي بمنشفة
اخرى . تطلعت الى الجسد المفسول فعاودني الشعور بأنها نائمة ،
في سكونها عدوية وصفاء . كانت طويلة ونجيفة سمراء سمرة رقراقة
كالكهوه الشقراء . لم يكن بالجسد المسجى شيء من الترهل لا في
التدين الصغيرين ولا في البطن والفخذين . وكان الوجه
وديما غطته المرءة البدينة بقطعة من الشاش اعقبتها بقماشه بيضاء
على الصدر ثم فردت ثلاث راقات من القماش القطنى الابيض فطنتهم
بالحرير الاصفر فالأخضر وأخيرا بقماش حريرى أبيض رقيق به

زركشات وتجميدات من نفس لونه ثم أفرغت زجاجة ماء الورد عليه بعدها أمسكت بطرف الاقمشة السبع وأمسكت خالتي سيدها بالطرف المقابل وقلبتاه معها ثم ادخلتاه تحت الجسد الذي أصبح ملفوفا في الكفن . وجاء الرجال حملوها وذهبوا .

بكت خالتي سيده طويلا وهي تكرر أن المسكينة ماتت دون أن ترى أولادها البعيدين في الغربة . تبكى وتكفكف دمعها ثم تقول كأنما تواسى نفسها : « لكن ربنا أوقف لها أولاد الحلال ، لانها أكيد كانت بنت حلال الله يرحمها » .

وعندما عاد عم مصطفى بعد ساعتين قال موجهها حديثه الى : « اكتبى لأولادها يا سوسن كان كل شيء متيسرا . كانت طائفة كالريشة ونحن نحملها على اكتافنا ونهرول للحاق بها . اكتبى لهم كان كل شيء متيسرا والحمد لله » ساعتها بكت سميرة ، انسالت الدموع من عينيها غزيرة ومدارة فبكت أمها معها .

أقمت بيت زينب عبد الحميد ثلاثة ايام . قلت لأمى ما قالته سميرة لامها ، ان التي ماتت هي أم صديقة لنا مسافرة فقالت أمى : « وما شأنك أنت ؟ وهل تبحثين عن المتاعب بحثا ! » وقلت للجيران الذين اتوا للعزاء أن المتوفاة خالتي وان أمى وباقى اخوتى يقيمون فى أسوان ولم يتمكنوا من المجيء وقلت لاصدقائى أن المرأة أخت أبى فى الرضاع وليس لها أهل الا نحن . كنت اكذب طول الوقت ، اؤلف حكاية مقبولة للبعض وأغيرها تماما لتصبح مقبولة للبعض الآخر وأشعر فى نهاية اليوم بانهاك هائل وضيق فى صدرى فما الذى كان يحدث لو لم تقم سميرة معى تلك الايام ؟ .

مساء اليوم الثالث أغلقنا باب الشقة بالمفتاح الذى سلمناه لبواب العمارة ليعيده الى صاحب البيت ومضيئا . سميرة تحمل فى يدها حقيبة صغيرة بها صور ورسائل متبادلة بين أبى وزينب عبد الحميد وأنا أحمل فى جيبى السلسلة الذهبية والخاتم الذى نقش عليه اسم أبى .

- هل أخبرك سعد بسفره ؟
- لم يخبرنى
- أخوك جبان ، سافر سرا كأنه لص ولم يترك الا هذه الرسالة
لزوجته .

كلام مقتضب فى سطور قليلة قرأتها ثم طويت الورقة واعدتها
اليها :

- لم يعطك عنوانه اذن ؟
- لم يقل لى انه ينوى السفر !
قمت لأعد فنجالين من القهوة ، كان الأمر قابضا بما لا يطاق .
هل تريد عنوانه لكى تذهب اليه مرة أخرى وتعيده قسرا . امى
لا تتعلم ولا تتوب كأنها قطار سكة حديد يجرى الى مقصده لا فرق
ان كانت على جانبيه ملاعب للاطفال أو قرى متفحمة ٠٠٠ أى قطار
وأى حديد ! وجهها شاحب وعيناها غائرتان بهما آثار بكاء وأرق ،
انها قلقة الى حد الفزع فلماذا أظلمها ؟

أقامت امى الدنيا ولم تقعدھا بحثا عن سعد . رجحت انه سافر
الى باريس أو روما فاتصلت تليفونيا بالمعارف والاصدقاء فى هاتين
العاصمتين تطلب منهم البحث عنه . علق مجدى ساخرا : الخطوة
القادمة لخديجة هى تليغ الأتروبول وتكليفهم بالقبض على الولد
حيا أو ميتا ! « فزجرته زينب .

بعد ستة أسابيع من سفره وصلتني رسالة من سعد : « كان
السفر ضروريا ... مجرد محاولة قد تنجح لوصل ما أنقطع ،
واحياء المشروع القديم ، سأحاول أن أنتظم فى الدراسة وأعود الى
الرسم . صحتى جيدة . تلازمنى الوحشة وأحيانا أشعر بالخوف
ولكننى ما زلت أتطلع الى طاقة صغيرة مفتوحة فى الجدار . افتتدك
يا سوسن وأعرف أن وجودك ولو فى البعد سند هائل لى . »

عنوان سعد الذى يؤرق امى البحث عنه معى مكتوب بخط يده
على الخطاب الذى أرسله الى من باريس . أحمله فى حقيبتي أريد
أن أعطيه لها فترتاح وأخشى أن يؤدي ذلك الى حادث مؤسف
جديد . أقرر أن الحكمة تقتضى ألا أعطيها العنوان وبلازمنى شعور
بالذنب واحساس موجه باننى أقسو عليها .

قررت أن أقول لها إن سعد اتصل بي تليفونيا من باريس :
- قال إنه يشترق لك كثيرا ويريد الاتصال بك ولكنه لا يجرؤ
لأنه يعرف أنك غاضبة .

- هل تكذبين ؟

- ولماذا أكذب ؟

- هل قال لك سلمى على ماما ؟

- قال سلمى عليها وقال إنه يفتقدك ويقلقه أنه تصرف بما

بغضبك .

- لماذا إذن لا يعود ؟

- لأنه يريد أن يتعلم الرسم ويرسم .

- أنه ولد طائش . لو اتصل بك مرة أخرى قولي له أنه لم يعد

يعنى لي شيئا . لم أعد أمه ولا أريدها أن أكون . عندما يتصل أطلبني

منه رقم تليفونه والعنوان !

سعد يكتب لي رسائل وبطاقات تثير القلق ، أفضى لسيرة بما

أشعر به تقول :

- سعد مترف وهش . اكتبني له يا سوسن ، اكتبني له أنه

ما دام اتخذ قرارا جريئا وقاطعا بهذا الشكل فليجمع شتات نفسه

ويتصرف بالمسئولية اللائقة ويبدأ في إنجاز ما يريد .

- الكلام سهل يا سميرة والانسان ليس آلة .

- ومن قال انه آلة ولكن هناك شيء مترف في أكتئاب سعد .

- أنه حزين ومهزوم ويبحث عن مخرج .

- أحيانا لا أفهمك يا سوسن إن كان سعد مهزوما فلماذا لم

يبق بهزيمته ويتحمل مسؤولياته كطبيب وزوج !

- أنت لا تفهمين !

- أنت على حق . قدراتي لا تمكنني من الفهم !

قالتها بحدة ساخرة كأنها تلقى بالكلمات في وجهي .

مكتئب على طريقة المترفين أم حزين حزن المحاصر لم يعد هو

السؤال فقد ذهب سعد .

عندما دخل على مجدى ذلك الصباح عرفت قبل أن ينطق :

- سأسافر بعد ساعات لأن سعدا بالمستشفى ، ارتدى ملابسك

سأوصلك الى أمك .

- أنتحر ؟

- شدي حيلك .

تحاشى التقاء العميون فعرقت أنه ذاهب ليعود به محمولا في

نعمته . أوصلنى الى بيت امى . مد يده لمصافحتى وأجهش بالبكاء .
وقفت فى الشارع أمام باب العمارة أتابع سيارته وهى تسعد .
اللى سعد بنفسه تحت عجلات القطار المقليل بسرعة الى محطة
مترو الأنفاق فهل كان قرارا مبتا حمله الى ذلك النفق المظلم ينتظر
الوحش المقليل باتجاهه بحدقتين مربعتين أم أنه كان خاطرا مباغتتا
داهمه فجأة فنفضه بلا تفكير أم هل زلت قدمه فسقط بلا وعى او ارادة
تحت عجلات القطار ؟

ذهب الفتى الجميل الذى كنت احبه لانه اخى واحبه لاننى ام
ار رجلا فى عدوبته . ابكيه بحرقة حتى عندما تحف دموعى ولا أبكى .
ابكيه لانه اخى وأبكيه لانه كان جميلا وأبكيه لانه مات قبل الأوان
وأشفق على امى التى بدا لى ان موت سعد سيجعلنى انفر من مجرد
رؤيتها . ارى فجميعها فأعرف ان لها أعظم وأجدنى اتساءل : لماذا
قسا سعد هكذا عليها ؟

عاد مقلما فى صندوق وواريناه التراب وذهبنا .

رأيتة وهو يدق بالباب الزجاجى خارجا من احدى شركات
الطيران لم يعد الولد الذى يؤكد تحول جسده وملابسه انه ولد .
كان هادى الآن رجلا ربعة فى منتصف عقده الرابع بجسده شىء
من امتلاء وان لم يكن ممتلئا تشى قصة شعره واطار نظاراته وهبيئة
شاربه وملابسه البسيطة المنتقا رغم ذلك بعناية باليسر المادى
والمكانة الاجتماعية .

حيانى بصخب وحرارة ولم أكن قد التقيت به منذ أكثر من عشر
سنوات . استفسر عن ملابس الحداد التى أرتديها فقلت له .
أخبرنى انه مسافر فى اليوم التالى وانه يعمل منذ سنوات مدرسا
للأدب العربى بجامعة هولندية . قال قد لا نلتقى قبل سنوات
ودعانى لتناول الغداء معه فقبلت . وعلق ونحن ندخل الى القاعة
المكيفة مطعم بأحد الفنادق الكبيرة : « هنا على الأقل بإمكاننا ان نجلس
بشكل انسانى بعيدا عن الحر والرطوبة الخائقة » .

جلسنا وطلبنا كوبين من عصير الليمون وأخترنا ما سوف نتناوله
من طعام وبدا ونحن نجلس صامتين أننا لن نجد ما نسوف نقوله
أم يسألنى عن سميرة ولم أعرف ان كان قد علم يوفاة امين . تحدث
عن عمله ودراساته ، عن حياته فى هولندا قال انها سهلة وهادئة
رغم لحظات الشعور بالفسرية . قال انه تزوج مرتين ولم يوفق

وسألني ان كنت قد تزوجت . واتى النادل بالطعام فاكلنا ولما انتهينا غادرنا المطعم وذهب كل منا في سبيله .

في الشارع لفح الهوا الساخن وجهي وبدت الرطوبة اشد وطاة بعد ساعتين من الجلوس في قاعة مكيفة الهواء . كان اليوم قانظ الحرارة ، الشمس تقدح والهوا مزوم والارض كالنار تذيب الأسفلت وكغيري من المارة سرت مسرعة اتقاء للحرارة وكنت اتساءل ان كانت شدة الرطوبة هي التي تثقل صدرى أم انه شعورى بالضيق . سرت حتى وصلت الميدان الكبير .

هذا ميدان كبير ، كالمدينة به كل شيء : النايبة الفخمة والبيت العتيق الذي يقاوم بلاء الزمن والفندق والبنك وشركة السياحة والمحل التجارى والمقهى القديم والمتحف المصرى والجامعة الاجنبية والكشك الخشبي الذى يبيع اشربة الشيخ عبد الباسط وام كلثوم وبائع الجرائد ومحطة الاوتوبيس والطريق الصاعدة بالسيارات الى جسر معلق والسلالم التى تهبط بالناس الى نفق ارضى للمرور وسيارة الامن المحشوة بالجنود الفقراء وماسورة ماء الصرف المكسورة حولها بركة الماء الاسن ونافورة الزينة . كل شيء فى هذا الميدان الذى يتوسطه نصب تذكارى للشهداء . اتطلع الى الميدان فتلتقط عينى بين سيل السيارات المتدفقة سيارة سوداء من ذلك النوع الشائع فى نقل الموتى لا تشبه تلك السيارة الاخرى التى استوقفتنى من قبل يجرها جوادان مطهمان وتزينها ملائكة صغيرة مطلية بطلاء مذهب ، كانت سيارة كئيبة وجرداء كمضمونها .

« هذا ميدان كبير » كررت لنفسى وانا اتطلع الى المارة وهم يعبرون ركضا فى حذر متوجس ، لم تكن هناك ارصفة ولا خطوط لعبور المشاه . انه ميدان كبير وعلى ان اعبر يحرص كى لا تدهمنى سيارة مسرعة فافقد حياتى بلا ثمن .

روايات الهلال تقدم :

وكانت المدن ملونة

بقلم :

رجاء نعمة

تصدر : ١٥ يناير سنة ١٩٩٠

رقم الايداع : ٧٨٢٦ / ٨٩
انترقيم الدولي : ٠ - ٤٥٢ - ١١٨ - ٩٩٧ ISBN

هذه الرواية

« كيف يتعكر ماء النبع ومن أين تأتي نباتات الوحشة وبأى قانون تتكاثر وتعيق المجرى وتسد الطريق؟ » تتساءل سوسن فى محاولة للفهم وترتيب مفردات عالمها .

سوسن هى الابنة وخديجة هى الأم ، والرواية التى تجمعهما وتشتركان فى سرد وقائعها تقدم مجموعة من العلاقات التى تجسد عالمين مختلفين متناقضين وإن تداخلا وتشابكا . عالم يبدو مهيمنا وراسخ الدعائم ، تتحرك فيه خديجة بخطى الملوك الواثقة ، وعالم يتخلق عبر الأسئلة والهموم التى تعيشها سوسن .

هى رواية عن أم وابنتها وهى أيضا رواية تلتقط شيئا من ملامح تاريخنا الراهن لهجومه وهزائمه وخيباته واشواقه فى التجاوز .



رضوى عاشور

● من مواليد القاهرة عام ١٩٤٦

● تخرجت فى كلية الآداب جامعة القاهرة فى عام ١٩٦٧ وحصلت على الدكتوراه فى الأدب الأفرو - أمريكى من جامعة ماساشوتس بالولايات المتحدة عام ١٩٧٥ .

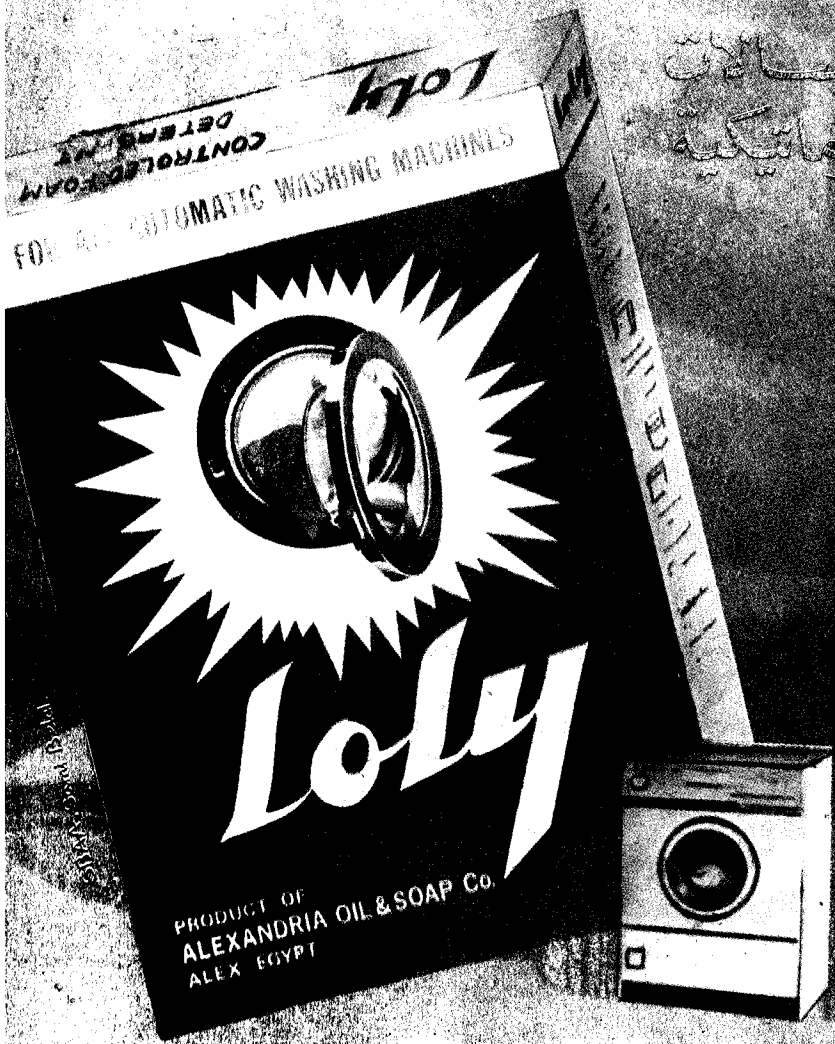
● صدر لها كتابان فى النقد هما الطريق إلى الخيمة الأخرى : دراسة فى أعمال غسان كنفانى (١٩٧٧)

والتابع ينهض : الرواية فى غرب افريقيا (١٩٨٠) ونصان إبداعيان هما الرحلة : أيام طالبة مصرية فى أمريكا (١٩٨٣) وحجر دافىء

رواية (١٩٨٥) ولها مجموعة قصصية تحت الطبع بعنوان « رأيت النخل » .

● تشغل وظيفة أستاذ بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة عين شمس .

لشركات
الآلات
الآلية



- رغوة محدودة ممتدة
- الوجد الذي يتغير
- على أنجات فعالة
- لها القدرة على
- التبع البيروتيت

لولا

شركة الإسكندرية للزيوت وال

أسلوب عصري للتنظيف
ذو أداء فعال متميز



مصر للطيران

٢٠٠ رحلة أسبوعيًا إلى ٥٠ مدينة
في مختلف أنحاء العالم